بَريقُ الجُمان

بشرح أركان الإيمان

تأليف

الدكتور   محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد : فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

فإن العقيدة الصحيحةَ هي أصلُ دين الإسلام، وأساسُ الملة، ومعلومٌ بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنةِ أن الأعمالَ والأقوالَ إنما تصح وتُقبَل إذا صدرت عن عقيدةٍ صحيحة، فإذا كانت العقيدةُ غيرَ صحيحة : بطل ما يتفرعُ عنها من أعمال وأقوال، قال تعالى :﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 5]، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:65]، وقال تعالى :ﮋﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ [سورة النساء:124]، فقيَّد ذلك بقوله :ﮋﮃ ﮄﮊ. وقال تعالى في غير المؤمن :ﮋﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮊ [الفرقان:23]، وقال تعالى :ﮋﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮊ [هود:16]. إلى غيرها من الآيات الكريمة.

وقد دلَّ كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله الأمين ﷺ على أن العقيدةَ الصحيحةَ

تتلخص في : الإيمان بالله تعالى، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليوم الآخر، وبالقدَر خيرِه وشرِّه، فهذه الأمورُ الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتابُ الله العزيز، وبعثَ الله تعالى بها رسولَه محمداً عليه الصلاة والسلام -.

ويتفرّعُ عن هذه الأصول كلُّ ما يجب الإيمانُ به من أمور الغيبِ وجميعُ ما أخبرَ الله تعالى به ورسولُهﷺ مما يجب اعتقادُه في حق الله سبحانه وتعالى وفي أمر المعاد وغير ذلك من المغيَّبات، كالتصديق بخبَرِ أصحابِ الكهف، وخروج الدَّجَّال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونحو ذلك.

وأدلةُ هذه الأصول الستة في الكتاب والسنةِ كثيرةٌ جداً سيأتي ذكرُ بعضِها في مواضعها، ومن ذلك : قولُ الله سبحانه : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: 177]، وقولُه سبحانه : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285].

وقولُه سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

وقولُه سبحانه : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70].

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على هذه الأصول : الحديث المشهور الذي أخرجه مسلمٌ في أول صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام سألَ النبيَّ ﷺ عن الإيمان، فقال له : «الإيمان : أن تؤمنَ بالله، وملائكتِه،

وكتبِه، ورسلِه، واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدَر خيرِه وشرِّه »، وأخرجه الشيخان من حديث أبي هريرةرضي الله عنه[1].

وسأخصص كلَّ أصل من هذه الأصول الستة بباب مستقل، أبدأ البابَ الأولَ ببيان حقيقة الإيمان؛ ثم أذكر نواقضَ الإيمان في بابٍ سابع، وأختم الرسالةَ بخاتمةٍ فيها بعضُ الأصول التي لم يَرِد ذكرُها أثناء الأبواب الستة، ويسبق كل ذلك تمهيدٌ أوَضِّحُ فيه بعضَ ما يُستحسنُ ذكرُه في بداية الرسالة، وبالله سبحانه وتعالى أستعين، وعليه التكلان.

---

(١) صحيح البخاري (ح/ 50)، وصحيح مسلم (ح/ 9).

التمهيد

مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية :

أولاً : تعريف العقيدة :

العقيدة لغة : فَعِيْلةٌ بمعنى مفعول، أي : المعقودة التي عقدَ عليها القلبُ وعزمَ بالقصدِ البليغ، وهي مأخوذة من العقد، وهو الشّدُّ والربطُ والإيثاق والثبوت والإحكام، وعَقد الحبل : شَدُّ بعضه ببعض، نقيض حله، وفي القرآن : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة: 89]، وتعقيدُ الأيمان إنما يكون بقصد القلبِ وعزمِه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد.

العقيدة اصطلاحاً : (العقيدةُ) في الاصطلاح العام هي : الإيمانُ الجازمُ والحكمُ القاطعُ، الذي لا يتطرَّقُ إليه الشكُّ لدى المعتَقِد، وهذا معنى (العقيدة) في الاصطلاح العام، بصرفِ النظرِ عن نوع الاعتقاد: حقٍّ أو باطلٍ. وسمِّيَ (عقيدةً) لأن الإنسانَ يعقِدُ عليها قلبَه.

وقد شاع مصطلحُ (العقيدة) في دراسات علماء المسلمين على المباحث المتعلِّقةِ بالله تعالى، من حيث وجودُه، وربوبيّته، وألوهيّته، وأسماؤه، وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوصُ الصحيحةُ من أصول الدين، وأمورِ الغيب، وأخبارِه، وما أجمع عليه السلفُ الصالحُ، والتسليمُ لله تعالى في الحكم والأمر، والقدر والشرع، ولرسوله بالطاعةِ والتحكيمِ والاتباع.

فالمراد بالعقيدة هنا : هو الإيمانُ الجازمُ بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد، والإيمان بملائكتِه وكتبِه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَرِ خيرِه وشَرِّه، وبما يتفرع

عن هذه الأصول ويلحق بها مما هو من أصول الدين.

ثانياً : التعريف بأهل السنة والجماعة :

1- السنة : لغة : السيرة، حسنة كانت أم سيئة.

وقد تكرر في الحديث ذكر (السنة) وما تصرف منها، والأصل فيها : الطريقة والسيرة.

واصطلاحاً : اختلف العلماء في معنى (السنة) اصطلاحاً، ويهمنا هنا معناها عند المحدثين والسلف قديما وحديثا.

أ= فالسنة عند المحدثين : تطلق على ما أضيف إلى النبي ﷺ من قوله وفعلِه وتقريره، فهي مرادِفةٌ للحديث.

ب= والسنة عند كثير من السلف قديماً وحديثاً : تتناولُ موافقةَ الكتاب والسنة في العبادات والاعتقادات، إلا أنه يغلبُ استعمالها في موافقة الكتاب والسنة في الاعتقادات، وهذا هو الذي يقصده مَن ألّفَ في (السنة) من علماء أهل السنة والجماعة.

ج= وعند أكثر السلف قديماً : هي موافقة كتاب الله تعالى وسنةِ الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين -، سواءً في أمور الاعتقادات أو العبادات.

ويقابل (السنة) على هذا الإطلاق : البدعة، فيقال : فلان على السنة : إذا كانت أعماله على وفق الكتاب والسنة، ويقال : فلان على البدعة : إذا كانت أعمالُه مخالفةً للكتاب والسنة أو أحدهما. وهذا الإطلاقُ أشملُ.

2- الجماعة : لغة : من (جمع)، يقال : جَمْعُ المتفرق، والجماعةُ ضد الفرقة.

واصطلاحاً : اختلفت عبارات أهل العلم في تحديد (الجماعة) الواردة في

مصطلح «أهل السنة والجماعة»، والذي أُخِذَ من قول النبيِّ ﷺ - عند بيانِهِ للفرقة الناجية - : «هي الجماعة »، وذكر بعضُ العلماء فيها ستةَ أقوال مع ذكر أدلتها؛ وهي باختصـار :

١ -السواد الأعظم من أهل الإسلام.

٢ -إجماع العلماء المجتهدين.

٣ -الصحابة ﷺ على الخصوص.

٤ -جماعة أهل الإسلام، إذا اجتمعوا على أمر.

٥ -جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

٦ -جماعة الحق وأهله.

ولا تعارض بين هذه الأقوال من حيث المعنى؛ فتفسير (الجماعة) بالصحابة ﷺ هو: باعتبار كونهم على الحق، وهم أهله، وكانوا السواد الأعظم، كما أنهم سَلَفٌ لمن بعدهم باعتبار أنهم مأخوذٌ عنهم؛ فليس المراد إذاً : أنهم وحدهم أهل السنة والجماعة

والأقوال المذكورة في تفسير (الجماعة) - على اختلاف ألفاظها - تجتمع معانيها في حق أهل السنة، ودائرةٌ على اعتبار أنهم هم أهل السنة والاتباع.

3- أهل السنة والجماعة :

أهل الرجل : أخص الناس به، وأهل البيت: سكانهُ، وأهل الإسلام : من يدين به، وأهل المذهب : من يدين به، وأهل الأمر : وُلاتُه.

فأهل الشيء : أخص الناس به.

و (أهل السنة والجماعة) هم : أخص الناس بالسنة والجماعة، وأكثرهم تمسكاً بها واتباعاً لها قولاً وعملاً واعتقاداً.

وهم الصحابةُ ﷺ والتابعون ومن تبعهم بإحسان من العلماء المجتهدين، السائرين على منهج الكتاب والسنة، ومن تبعهم في ذلك، إلى أن يرث الله تعالى الأرضَ ومـن عليها.

ثالثاً : قواعد عامة في اعتقاد أهل السنة والجماعة :

من القواعد العامة التي تُمَيِّزُ منهجَ أهل السنة والجماعة في باب الاعتقاد :

1- مصادر عقيدة أهل السنة والجماعة : نظراً لأن عقيدة أهل السنة والجماعة توقيفيّة؛ فهي تقوم على التسليم بما جاءَ عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ ، دون تحريف ولا تأويل، ولا تعطيل ولا تمثيل.

ولها مصدران أساسيّان، هما :

أ- القرآن الكريم.

ب- ما صحَّ عن رسول الله ﷺ .

والإجماعُ المعتبرُ في تقرير العقيدة مبنيٌّ على الكتاب والسنةِ أو أحدِهما.

والفطرةُ والعقلُ السليمُ : رافدان مؤيدان لا يَستَقِلَّان بتقرير تفصيلاتِ العقيدةِ وأصولِ الدين، فهما يوافقان الكتابَ والسنةَ ولا يعارضانهما.

وإذا وردَ ما يوهِمُ التعارضَ بين النقل والعقل : اتهمنا عقولَنا؛ فإن النقلَ الثابتَ مقدَّمٌ ومُحكَّمٌ في الدين، فتقديمُ عقول الناس وآرائهم الناقصة والمتضاربة على كلام الله تعالى ورسولِه ﷺ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه : ضلالٌ وتعسف، وهو سببُ ضلال كثيرٍ من الفرق الكلاميةِ وغيرِها.

2- ما صحَّ عن رسول الله ﷺ وإن كان من أخبار الآحاد : وجبَ قبولُه واعتقادُه، والعملُ به إن كان من المسائل العمليَّة.

3- ما اختُلِف فيه من أصول الدين : فمردُّه إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ (الكتاب

والسنة) كما فهمَهما الصحابةُ ﷺ والتابعون، والتابعون لهم من أئمة الدين.

4- أصول الدين والعقيدة توقيفيةٌ قد بيّنها رسولُ الله ﷺ بالقرآن والسنة، وعليه : فكلُّ محدثةٍ في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة، كما صحَّ عن الرسول ﷺ.

فليس لأحد أن يُحدِثَ أمراً من أمور الدين زاعماً أنه يجب التزامُه أو اعتقادُه؛ فإن الله تعالى أكملَ الدين وانقطع الوحي، وختمت النبوة؛ لقوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:3]، وقولِه ﷺ : «من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»(١)، وهذا الحديثُ قاعدةٌ من قواعد الدين، وأصلٌ من أصول العقيدة.

5- لا يجوز تأويلُ نصوص العقيدة، ولا صرفُها عن ظاهرها بغير دليل شرعيٍّ ثابتٍ عن المعصوم ﷺ .

ولا خصوصيَّةَ لنصوص العقيدة في عدم جواز التأويل المذموم، بل هذا الحكم عامٌّ في جميع نصوص الشرع، ولكن وجَبَ التنبيهُ عليه هنا لِـما أنّ هذا الباب قد عمَّت فيه بليَّةُ التأويل بأسماء مختلفة.



---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 2697)، ومسلم (ح/ 1718) عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها-.

الباب الأول
الإيمان باللّه تعالى

وفيه فصلان :

الفصل الأول : في بيان معنى الإيمان وما يتعلق به، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني : زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الثالث : الاستثناء في الإيمان.

الفصل الثاني : في الإيمان بالله تعالى، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بربوبيّة الله تعالى.

المبحث الثاني : الإيمان بألوهيّةِ الله تعالى، وفيه أربعةُ مطالب :

المطلب الأول : تعريفه ومكانته.

المطلب الثاني : شهادة أن لا إله إلا الله.

المطلب الثالث : العبادة.

المطلب الرابع : أساليب القرآن في الدعوة إلى الإيمان بألوهيّةِ الله تعالى.

المبحث الثالث : الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاتِه، وفيه ثلاثةُ مطالب :

المطلب الأول : طريقةُ أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاتِه.

المطلب الثاني : أقسام الصفات.

المطلب الثالث : قواعد مهمة في توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الأول

في بيان معنى الإيمان وما يتعلق به.

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني : زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الثالث : الاستثناء في الإيمان.

المبحث الأول

تعريف الإيمان لغةً واصطلاحاً :

أولاً : تعريف الإيمان لغةً :

الإيمانُ لغةً : مصدرُ آمَنَ يؤمنُ إيماناً فهو مؤمن، وأصلُ آمَن (أَأْمَنَ) – بهمزتَين – لُيِّنَت الثانية، وهو من الأمن ضد الخوف.

وقد عُرِّف الإيمانُ في اللغة بعدة تعريفات : فأكثرُ المتكلمين على أنه : التصديق، وقيل : هو الثقة، وقيل : هو الطمأنينة، وقيل : هو الإقرار.

والصحيح أن الإيمانَ في اللغةِ ليس مرادفاً للتصديق؛ لأن هناك فروقاً بين الإيمان والتصديق في اللفظ والمعنى تمنع دعوى الترادف.

- أما الفروق في اللفظ فمنها : أنّ الكلمةَ إذا كانت بمعنى الكلمة : فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلومٌ أنّ (التصديقَ) يتعدّى بنفسه، و(الإيمان) لا يتعدّى بنفسه، فنقول - مثلاً - : صدّقته، ولا نقول : آمنته، بل نقول : آمنت به، أو : آمنت له، فلا يمكن أن نفسِّرَ فعلاً لازِماً لا يتعدّى إلاّ بحرف الجر، بفعلٍ مُتَعَدٍّ ينصبُ المفعولَ به بنفسه [1].

- أما الفروق في المعنى فمنها :

١ - أنّ التصديقَ أعمُّ في المتعلَّق : فـإنّ كلَّ خبرٍ، سواء كان عن مشاهدة، أو عن غيب؛ يُقال للمُخبِرِعنه في اللغة : صدقت، كما يُقال : كذبت، أمّا لفظُ الإيمان : فلا يُستَعمل إلاّ في الخبر عن غائب، فلو قال: طلعت الشمس، أو غربت : لا

---

(١) انظر: (شرح العقيدة الواسطية) للشيخ ابن عثيمين (ص/ 573).

يُقال : آمَنّاه، كما يُقال : صدّقناه؛ لأنّ الإيمانَ مشتقٌّ من (الأمن)، فيُستَعمل في خبرٍ يؤتمَن عليه المُخبِر، كالأمر الغائب، ولهذا لم يوجد في القرآن وغيره قط : آمَنَ له، إلاّ في هذا النوع، والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يُقال : صدّقَ أحدُهما صاحبَه، ولا يُقال : آمنَ له؛ لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنَه عليه، ولهذا قال تعالى : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:26]، ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 61] ، فيصدِّقُهم فيما أخبروا به مما غابَ عنه، وهو مأمونٌ عنده على ذلك، فاللفظُ متضمِّنٌ مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا :﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف:17] ، أي : لا تُقِرُّ بخبرنا، ولا تَثِقُ به، ولا تطمئِنُّ إليه، ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتَمَنُ على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم[1].

٢ -«الإيمان أوسع في المدلول » : لأنّ لفظَ (الإيمان) يضم معانِي الحب، والموالاة، وضدُّه الكفر، الذي يضم معانِي البغض والمعاداة، والتصديق والتكذيب يخلوان من هذه المعانِي.

٣ -أنّ لفظَ الإيمان في اللغة لا يُقابل بالتكذيبِ كلفظ التصديق؛ فإنه من المعلوم في اللغة : أنّ كلَّ مُخبِرٍ يُقال له : صدقت، أو كذبت، ويُقال : صدّقناه، أو كذّبناه، ولا يُقال لكل مُخبِرٍ : آمَنّا له، أو كذبناه، ولا يُقال : أنت مؤمنٌ له، أو مكذّبٌ له.

بل المعروفُ في مقابلة الإيمان لفظُ الكفر، يُقال : هو مؤمن أو كافر، والكفرُ لا يختصُّ بالتكذيب، بل لو قال قائلٌ للرسول ﷺ : أنا أعلم أنكَ صادقٌ، لكن لا

---

(١) انظر : (الإيمان) لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص/ 227-229).

أتبعك، بل أعاديك وأبغضك، وأخالفك، ولا أوافقك : لكان كفرُه أعظم.

فلمّا كان الكفرُ المقابلُ للإيمان ليس هو التكذيب فقط : عُلِمَ أنّ الإيمانَ ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفرُ يكون تكذيباً، ويكون مخالفةً ومعاداةً، وامتناعاً بلا تكذيب : فلا بد أن يكون الإيمانُ تصديقاً مع موافقةٍ وموالاةٍ وانقياد، لا يكفي مجرّدُ التصديق

والخلاصة : أنّ كلمة (صدقت) لا تُعطي معنى كلمة (آمنت)؛ فإنّ (آمنت) تدلُّ على طمأنينةٍ بخبره أكثرَ من (صدقت)، ولهذا لو فُسِّرَ الإيمانُ بالإقرار : لكان أجود، فنقول: الإيمان : الإقرار، ولا إقرارَ إلاّ بتصديق، فتقول : أقرَّ به، كما تقول : آمنَ به، وأقرَّ له، كما تقول : آمَنَ له [1].

فليس الإيمانُ هو التصديق فحسب، وإنما هو تصديقٌ وزيادة، وهي الأمن والطمأنينة، فهو متضمِّنٌ للالتزامِ بالمؤمَن به، سواء كان خبراً، أو إنشاء، بخلاف لفظ التصديق المجرد.

ثانياً : تعريف الإيمان شرعاً :

الإيمانُ في اصطلاح الشرع هو: اعتقادٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالأركان.

وهو يشتملُ على قول القلب واللسان، وعملِ القلب واللسان والجوارح، وفيما يلي عرضٌ موجز لبعض الأدلة الدالة على دخول هذه الأمور في مسمى الإيمان :

أولاً : قولُ القلب، وهو تصديقُه واعتقادُه وإيقانُه، قال تعالى﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ

---

(١) انظر : (شرح العقيدة الواسطية) للشيخ ابن عثيمين (ص/ 573-574).

وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 33-34]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75]، وقال تعالى:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: 15]، وقال تعالى في المرتابين الشاكّين :﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167].

وفي حديث الشفاعة : «يخرج من النارِ مَن قال (لا إلهَ إلا الله) وفي قلبه وزنُ شعيرةٍ من خيرٍ»(١)، وغير ذلك من الأدلة.

ثانياً : قول اللسان، وهو النطقُ بالشهادتَين؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بلوازمها، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ [القصص: 53]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: 15]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13].

وقال ﷺ : «أمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله»(٢)، وغير ذلك من النصوص.

ثالثاً : عمل القلب، وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله

---

(١) رواه البخاري (ح/ 44)، ومسلم (ح/ 193).

(٢) رواه البخاري (ح/ 25)، ومسلم (ح/ 22).

ﷻ والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: 20]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

وغير ذلك من النصوص الدالة على وجوب التوكل، والخوف، والرجاء، والخشية، والخضوع، والإنابة، وغيرها من أعمال القلوب، وهي كثيرةٌ جداً في الكتاب والسنة.

رابعاً: عملُ اللسان، وهو العملُ الذي لا يؤدَّى إلا به، كتلاوة القرآن، وسائر الأذكار من التسبيح، والتحميد، والتكبير، والدعاء، والاستغفار، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدَّى باللسان، قال تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:29]، وقال تعالى:﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:27]، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:41-42]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل:20]، وغير ذلك من نصوص الشرع الدالَّة على أعمال اللسان والطاعات التي تؤدَّى به.

خامساً: عمل الجوارح، وهو العملُ الذي لا يؤدَّى إلا بها، مثل القيام، والركوع، والسجود، والمشي في مرضاة الله، كنقل الخطا إلى المساجد وإلى الحج والجهادِ في سبيل الله، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدّى بالجوارح، قال تعالى﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:238]، وقال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: 77-78]، وقال

تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: 63-64].

والنصوصُ في هذا كثيرةٌ جداً.

هذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

وهذا الإيمانُ يشملُ: الإيمانَ بكل ما أخبر الله تعالى به في كتابه، أو أخبرَ عنه رسولُه ﷺ من أمور الغيب والشهادة جملةً وتفصيلاً، ومن ذلك: الإيمانُ بالله تعالى وتوحيدُه بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وكذلك بقيةُ أركان الإيمان الستة.

المبحث الثاني

زيادة الإيمان ونقصانه :

الإيمانُ يزيدُ بالطاعة، وينقص بالمعصية، وعليه إجماعُ أئمة السنة، نقلَ الإجماعَ عددٌ من الأئمة، كالبخاري – رحمه الله تعالى – وغيرِه، كما سيأتي.

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرةٌ جدا، وهي في القرآن فقط أكثر من عشرة أنواع، كل نوعٍ يضم عدداً من الآيات، وأقتصر هنا على النوع الأول، وهو الآيات التي فيها التصريحُ بزيادة الإيمان :

لقد وردَ التصريحُ بزيادة الإيمانِ في ستة مواضع من القرآن الكريم، منها :

١ -قولُه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

٢ -وقولُه تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

٣ -﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124].

٤ -﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

وقد استدلَّ بهذه الآيات وغيرها على زيادة الإيمان ونقصانه أئمةُ المسلمين قديماً وحديثاً، والأمرُ في استعراضِها يطول.

كما أنّ الأحاديث الدالةَ على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جداً منها :

1- ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون - شعبة، فأفضلُها: قول (لا إله إلا الله)، وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[1].

فقد جعلَ الحديثُ القولَ من الإيمان، فقال ﷺ: «أعلاها: قولُ لا إله إلا الله»، كما أنه ﷺ جعل العملَ من الإيمان فقال: «وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق»، وهذا يدل على أن الإيمان قولٌ وعملٌ، خلافاً للمرجئة.

كما أن قولَه ﷺ: «أفضلُها» وقولَه: «أدناها» يدل على زيادة الإيمان ونقصانِه صراحةً، حيث أفاد أن للإيمان أفضل وأدنى.

2- ما رواه أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرجُ من النار مَن قال (لا إلهَ إلا الله) وفي قلبه وزنُ شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار مَن قال (لا إلهَ إلا الله) وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ من خير، ويخرج من النار من قال (لا إله إلا الله) وفي قلبه مثقالُ ذرةٍ من خير»[2].

والدليل من الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه قولُه: «وفي قلبه مثقالُ شعيرة ... بُرّة ... ذرّة»، فهو نصٌّ على نقصانه حتى يصير إلى هذا القدر الصغير، وقد وردَ في بعض روايات الحديث - وهو حديث الشفاعة - أن النبيَّ ﷺ قال: «فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرِجْ مَن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبةِ خردل من إيمان، فأَخْرِجْه من النار، فأنطلقُ فأفعل»[3]، فقولُه ﷺ:

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 9)، ومسلم (ح/ 35)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 44)، ومسلم (ح/ 193/ 366)، واللفظ للبخاري.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 7510)، ومسلم (ح/ 193/ 367).

«أدنى أدنى أدنى» دليل صريحٌ على النقصان.

وقد نقلَ كثيرٌ من الأئمة إجماعَ أهل السنة والجماعة على القول بزيادة الإيمان ونقصانه، من ذلك ما قاله الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاّم : (ت224هـ) :

«هذه تسميةُ مَن كان يقول : الإيمانُ قولٌ وعمل، يزيد وينقص...»، فسمّى أكثر من مائةٍ وثلاثين رجلاً من أهل العلم، من الصحابةِ وغيرهم، ثم قال : «هؤلاء كلُّهم يقولون : الإيمانُ قولٌ وعمل، يزيد وينقص، وهو قولُ أهل السنة، والمعمولُ به عندنا»(١).

وقال الإمام البخاريُّ : (ت 256هـ) : «كتبت عن ألفٍ وثمانين رجلاً، ليس فيهم إلاّ صاحبُ حديث، كانوا يقولون : الإيمانُ قولٌ وعمل، يزيد وينقص»(٢).

وقال الإمامان الرازيان : أبو حاتم، وأبو زرعة :

«أدركنا العلماءَ في جميع الأمصار : حجازاً، وعراقاً، ومصراً، وشاماً، ويَمَناً، فكان من مذهبهم : أنّ الإيمانَ قولٌ وعمل، يزيد وينقص...»(٣).

---

(١) رواه ابن بطة في (الإبانة) (2/ 814-برقم/ 1117)، وذكرَه شيخُ الإسلام في (الإيمان) (ص/ 242-243).

(٢) حكاه الذهبيُّ في (السير) (12/ 395) عن ورّاق البخاري، وروى اللالكائي عنه بنحوه في (شرح أصول الاعتقاد) (5/ 959-برقم/ 1597)، وعنه الحافظ في الفتح (1/ 61) - في شرح ترجمة أول أبواب الإيمان -.

(٣) رواه عنهما ابنُ أبِي حاتم في رسالة (أصل السنة واعتقاد الدين) (ص/ 16).

المبحث الثالث

الاستثناء في الإيمان

الاستثناءُ في الإيمان هو قولُ الإنسان : أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى.

وكان السلفُ يكرهون سؤالَ الرجل لغيره : أمؤمنٌ أنت ؟ ويكرهون الجواب عن ذلك؛ لأن هذه بدعةٌ أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم.

ومع أن هذا السؤالَ بدعة، إلا أن الجوابَ عن هذا السؤال يكون بالتفصيل، وهو أنه يجوز الاستثناءُ باعتبار، وتركُه باعتبار(١).

أما ترك الاستثناء : فإن المستثني إن أرادَ الشكَّ في أصل إيمانه : مُنِع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه.

وأما جوازُ الاستثناء – وهو الأصلُ - : فلاعتبارات أخرى، ومُسَوِّغاتُ جوازِ الاستثناء في الإيمان خمسة :

١ -أنّ الإيمانَ المطلقَ شاملٌ لكل ما أمرَ الله به، والبُعد عن كل ما نهى عنه، ولا يدَّعي أحدٌ أنه جاءَ بذلك كلِّه على التمام والكمال.

٢ -أنّ الإيمانَ النافعَ هو المتقبَّل عند الله تعالى.

٣ -الابتعاد عن تزكية النفس، وليس هناك تزكية لها أعظمُ من التزكية بالإيمان.

٤ -أنّ الاستثناءَ يَصِحُّ أن يكون في الأمور المتيقَّنة غيرِ المشكوكِ فيها أصلاً، كما جاءت به نصوصُ الكتاب والسنة، منها قولُه تعالى : ﴿لَتدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ الله ءامنين﴾ [الفتح: 27]، مع أنّ دخولَهم مكةَ لم يكن فيه

---

(١) انظر : (الإيمان) لشيخ الإسلام (ص/ 334)، (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي (2/ 495).

شكٌّ. ومن ذلك قولُه ﷺ حين وقفَ على المقابر : «وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»[(١)].

٥ -أن المرءَ المسلمَ لا يدري بمَ يُختم له، وكيف تكون خاتمتُه، فيستثني خوفاً من سوء الخاتمة، ويسأل الله حسنَ الختام، والثباتَ على الإيمان إلى المماتِ[(٢)].

فالاستثناءُ في الإيمان جائزٌ مشروع؛ لأن الإيمانَ عند أهل السنة والسنة شاملٌ للاعتقادات والأقوال والأعمال، فإذا سئل أحدُهم هذا السؤال : استثنى في إيمانه مخافةَ عدم تكميل الأعمال والأقوال التي بكمالها يكملُ الإيمان، فيقول أحدُهم إذا أجاب : أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى، أو : مؤمنٌ أرجو، أو نحو ذلك.

وليس هذا لأجل الشك في أصل الإيمان، وإنما هو تركاً لتزكية النفس، والشهادة لها بتكميل الأعمال، وكذلك بقية الاعتبارات السابقة.

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ 249) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(ح/ 974) من حديث عائشة – رضي الله عنها-.

(٢) انظر التفصيل في : (الإيمان) لشيخ الإسلام (ص/ 348-357)، (شرح العقيدة الطحاوية) (2/ 495-496).

الفصل الثاني

في الإيمان بالله تعالى

الإيمانُ بالله تعالى أساسُ قواعد وأركان الإيمان وأصلُها، وهو يعني الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى ربُّ كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده، المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادةَ وحده لا شريك له، وأن كلَّ معبود سواه : فهو باطل، وعبادتُه باطلة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]، وأنه سبحانه متَّصِفٌ بصفات الكمالِ ونعوتِ الجلال، منَزَّهٌ عن كل نقصٍ وعيب.

وهذا هو التوحيدُ بأنواعه الثلاثة : توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وفيما يلي شرح كل نوع منه في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول

الإيمان بربوبية الله تعالى

أولاً : تعريفُه :

الإيمانُ بربوبية الله تعالى هو الإقرار الجازمُ بأن الله تعالى وحده ربُّ كل شيء ومليكه، وأنه الخالقُ للعالَـم، وهو المدبر، المحيي، المميت، وهو الرزاق، ذو القوة المتين.

وكلمة (الرب) في اللغة تطلق على معان : على المالك، والسيد، والمدبِّر، والمربي، والقيِّم، والمنعم[1].

وأما الرب من حيث كونُه اسماً من أسماء الله تعالى فمعناه : مَن له الخلقُ والأمرُ والملك، فـ«هو ربُّ كلِّ شيء، أي : مالكُه، وله الربوبيّـةُ على جميع الخلق لا شريك له»[2].

ثانياً : أدلة الإيمان بالربوبية :

أدلة الإيمان بالربوبية كثيرةٌ ومتنوعة، تدل على تفرد الله تعالى بالربوبيةِ على خلقه أجمعين، فقد جعل الله تعالى لخلقه أموراً لو تأملوها حق التأمل وتفكروا بها: لَدَلَّتْهم إلى أن هناك خالقاً مدبراً لهذا الكون.

والقرآن مليءٌ بذكر الأدلة على ربوبية الله تعالى، فمن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: 82-83]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

(١) قاله ابن منظور في (لسان العرب) (1/ 399-ربب).

(٢) تهذيب اللغة، للأزهري (15/ 176).

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 40].

ومن الدلالات على ربوبية الله تعالى على خلقه :

1- دلالة الفطرة : ذلك أن الله سبحانه فطَرَ خلقَه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالقُ الرازقُ المدبر، المحيي المميت، فالإيمانُ بالربوبيةِ أمرٌ جلي مركوزٌ في فطرة كل إنسان، ولا يستطيع أحدٌ دفعَه ولا رفعَه.

ولهذا فإن المشركين في الجاهلية كانوا مقرين بربوبيةِ الله تعالى مع شركهم بالألوهية، وهذا مبثوثٌ في ثنايا أشعارهم، من ذلك قولُ عنترة[1] :

ياعبلُ أين من المنيةِ مهربي * إن كان ربي في السماء قضـاها

وقول زهير ابن أبي سلمى[2] :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم * ليخفى ومهما يُكتم اللهُ يعلم
يؤخِّر فَيُوضَعْ في كتابِ فيُدَّخر * ليوم الحساب أو يُعجَّلْ فينقم

وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن

---

(١) ديوان عنترة (ص/ 74).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص/ 25).

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: 86]، وهذا في القرآن كثير، يذكر الله سبحانه عن المشركين أنهم يعترفون لله بالربوبيةِ والانفرادِ بالخلقِ والرزقِ والإحياءِ والإماتة.

2- دلالة الأنفس: فالنفسُ آيةٌ كبيرةٌ من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته، ولو أمعن الإنسانُ النظرَ في نفسه وما فيها من العجائب: لَعلِمَ أن وراء ذلك ربًّا حكيماً عليماً خالقاً قديراً، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

3- دلالة الآفاق: قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، فلو تأمّل الإنسانُ الآفاقَ وما أودع الله تعالى فيها من الغرائب والعجائب: لأدركَ أنّ هناك خالقاً ومدبراً لهذه الأكوان، وأنه عليم حكيم.

ثالثاً: إنكار الربوبية:

لم ينكر ربوبيّةَ الله تعالى إلا شواذٌّ من البشر، تظاهروا بإنكار الربِّ - تبارك وتعالى - مع اعترافهم به في باطن أنفسهم وقرارةِ قلوبهم، وإنكارُهم له إنما هو من باب المكابرة؛ كما ذكر الله تعالى عن فرعون أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، وقد خاطبَه موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 102]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

وهم لم يستندوا في جحودهم إلى حجة، وإنما ذلك مكابرةً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24]؛ فهم لم ينكروا عن علمٍ دلَّهم على إنكاره ولا سمع ولا عقل ولا فطرة.

ولما كان هذا الكون وما يجري فيه من الحوادث شاهداً على وحدانية الله تعالى وربوبيَّته؛ إذ المخلوقُ لا بدَّ له من خالق، والحوادثُ لا بد لها من مُحدِث؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: 35]، وقال الشاعر:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ * تدلُّ على أنـه واحدُ

لَـمّا كان لا بدَّ من جواب عن هذه الحقيقة: اضطربَ هؤلاء المنكرون لوجود الخالقِ في أجوبتهم:

فتارةً يقولون: هذا العالَـمُ وُجد نتيجةً للطبيعة، التي هي عبارة عن ذات الأشياء من النبات والحيوان والجمادات؛ فهذه الكائنات عندهم هي الطبيعة، وهي التي أوجدت نفسَها!

أو يقولون: هي عبارة عن صفات الأشياء وخصائصِها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وملاسة وخشونة، وعن هذه القابليات من حركة وسكون ونموّ وتزاوج وتوالد؛ هذه الصفاتُ وهذه القابليات هي الطبيعة بزعمهم، وهي التي أوجدت الأشياء!!

وهذا قول باطل على كلا الاعتبارين؛ لأن الطبيعةَ بالاعتبار الأول على حد قولهم تكون خالقةً ومخلوقة؛ فالأرضُ خلَقت الأرض، والسماءُ خلقت السماء...وهكذا! وهذا مستحيل.

وإذا كان صدورُ الخلق عن الطبيعة بهذا الاعتبار مستحيلاً : فاستحالتُه بالاعتبار الثاني أشد استحالة؛ لأنه إذا عجز ذاتُ الشيء عن خلقه : فعَجزُ صفته من باب أولى؛ لأن وجود الصفة مرتبطٌ بالموصوف الذي تقوم به، فكيف تخلقُه وهي مفتقِرةٌ إليه ؟! وإذا ثبتَ بالبرهان حدوثُ الموصوف : لزم حدوث الصفة.

وأيضاً : فالطبيعةُ لا شعورَ لها، فهي آلةٌ محضة، فكيف تصدرُ عنها الأفعالُ العظيمةُ التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة، وفي غاية الارتباط.

ومن هؤلاء الملاحدة مَن يقول : إن هذه الكائنات تنشأ عن طريق المصادفة، بمعنى أن تجميع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يؤدي إلى ظهور الحياة بلا تدبيرٍ من خالقٍ مدبِّرٍ ولا حكمة !!

وهذا قولٌ باطل تردُّه العقولُ والفِطَر؛ فإنك إذا نظرتَ إلى هذا الكون المنظَّم بأفلاكه وأرضه وسمائه وسيرِ المخلوقات فيه بهذه الدقة والتنظيم العجيب : تبيّن لك أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن خالقٍ حكيم.

فـ«سَلِ المعطلَ الجاحد : ماذا تقول في دولابٍ دائرٍ على نهر، وقد أُحكِمَت آلاتُه، وأُحكِمَ تركيبُه، وقُدِّرَت أدواتُه أحسن تقدير وأبلغِه، بحيث لا يرى الناظرُ فيه خللاً في مادته ولا في صورته، وقد جُعل على حديقةٍ عظيمة، فيها من كل أنواع الثمار والزروع، يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقةِ مَن يلِمُّ شعثَها، ويُحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها، فلا يختلُّ منها شيء، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على أحسن المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنفٍ منهم ما يليقُ به، ويقسمه هكذا على الدوام...

أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختارٍ ولا مدبر، بل اتفق وجودُ ذلك الدولاب

والحديقةِ وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيّمٍ ولا مُدبِّر ؟!

أفترى ما يقول لك عقلُك في ذلك لو كان ؟! وما الذي يفتيك به ؟ وما الذي يرشدك إليه ؟!

ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلقَ قلوباً عمياً لا بصائرَ لها، فلا ترى هذه الآياتِ الباهرة إلا رؤيةَ الحيوانات البهيمية، كما خلقَ أعيناً عمياً لا أبصارَ لها»[1].

---

(١) من كلام الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) (2/ 69).

المبحث الثاني
الإيمان بألوهيّة الله تعالى

وفيه أربعةُ مطالب :

المطلب الأول : تعريفُه ومكانتُه :

الإيمانُ بألوهيّة الله تعالى هو : إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة.

ويُسمى باعتبار إضافتِه إلى الله تعالى بتوحيد الألوهية، وباعتبار إضافتِه إلى الخلق بتوحيد العبادة، وتوحيد العبودية، وتوحيد الله بأفعال العباد، وتوحيد العمل، وتوحيد القصد، وتوحيد الإرادة والطلب؛ لأنه مبني على إخلاص القصد في جميع العبادات بإرادة وجه الله تعالى.

وهذا الذي من أجله خلقَ الله الجنَّ والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ومن أجله أرسلَ الله الرسل وأنزلَ الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وهو أول دعوة الرسل وآخرها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وهو أولُ الدين وآخرُه، فأولُ ما دعا إليه الرسولُ ﷺ شهادةُ أن لا إلهَ إلاّ الله، قال ﷺ : «أمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهَدوا أن لا إلهَ إلاّ الله» (١)، وقال لِمعاذ ﷺ : «إنك تأتِي قوماً أهلَ كتابٍ، فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادةُ أن لا إلهَ إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله» (٢).

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر – رضي الله عنهما –، أخرجه البخاري (ح/ 25)، ومسلم (ح/ 22).

(٢) متفقٌ عليه، أخرجَه البخاريُّ (ح/ 1458) ومواضع أخرى، ورواه مسلم (ح/ 19/ 29–31).

وكما أنه أول ما دعا إليه النبيُّ ﷺ : فقد ذكر فضلَ ختمِ العملِ به، فقال ﷺ في الصحيح من رواية مسلم عن عثمان ﷺ : «مَن مات وهو يعلم أن لا إلهَ إلاّ الله دخلَ الجنة»(١)، وفي الحديث الصحيح عن أبِي هريرة ﷺ : «لَقِّنوا موتاكم لا إلهَ إلاّ الله»(٢)، وفـي السنن من حديث معاذ : «مَن كان آخرُ كلامه لا إلهَ إلاّ الله دخلَ الجنة»(٣)، ...وهي الكلمةُ التي عرضَها على عمّه أبي طالب عند الموت (٤).

ومن أجل هذا التوحيد قامت الخصومةُ بين الأنبياء وأممِهم، وبين أتباعِ الأنبياءِ من أهل التوحيد وبين أهل الشرك وأهلِ البدع والخرافات، ومن أجله جُرِّدت سيوفُ الجهاد في سبيل الله، وهو أولُ الدين وآخرُه، بل هو حقيقةُ دين الإسلام، وهو يتضمن الإيمانَ بربوبية الله تعالى، وبأسمائه وصفاتِه؛ لأن مَن عبدَ الله تعالى وحده، وآمَنَ بأنه المستحقُّ وحده للعبادة : دلَّ ذلك على أنه مؤمنٌ بربوبيَّتِه وبأسمائه وصفاتِه؛ لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعتقد بأن الله تعالى وحده هو المتفضِّلُ عليه وعلى جميع عباده بالخلق والرزق والتدبيرِ وغير ذلك من خصائص الربوبية، وأنه تعالى له الأسماءُ الحسنى والصفاتُ العلى التي تدل على أنه المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له.

والحديث عن هذا النوع من التوحيد لن يتم إلا بالحديث عن شهادة أن «لا

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ 26).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ 917).

(٣) أخرجَه أبو داود (3/ 318–ح/ 3116) في الجنائز، باب في التلقين، وأحمد (5/ 233) [36/ 363–ح/ 22034 من ط: الرسالة]، والحاكم (1/ 351)، وابن مندة في (التوحيد) (2/ 45–ح/ 187)، والحديثُ صحيح، ولفظ أحمد : «وجبت له الجنة».

(٤) (مجموع فتاوى شيخِ الإسلام) (34–35).

إله إلا الله»؛ لأن هذا التوحيد هو مضمون تلك الشهادة.

وكذلك بالحديث عن العبادة؛ لأن الألوهية معناها العبادة، وأن الإله معناه المعبود، ولهذا يُسمى هذا النوعُ من التوحيد توحيد العبادة، فمن الضروري معرفة العبادة أيضاً، وسأتحدث عن الموضوعين في المطلبين الآتيَين – الثاني والثالث – :

المطلب الثاني : شهادة أن لا إله إلا الله :

أولاً : معناها وفضلُها :

معنى شهادة أن «لا إله إلا الله» إجمالاً : لا معبود بحق إلا الله تعالى، أي : لا أحد يستحق أن يُعبدَ إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يُدعى إلا الله تعالى، ولا يجوز أن يصلى أو يُنذر أو يُذبح إلا لله تعالى، وهكذا بقية أنواع العبادة، لا يستحقُّ أحدٌ أن تُصرف له سوى الله تعالى.

و«لا» نافية للجنس، و«إلهَ» اسمُها، وخبرُها محذوفٌ تقديرُه «حق».

و«إله» من أَلَهَ – بالفتح – يأْلَهُ إلاَهةً، والمعنى : عبدَ يعبدُ عبادة.

والإلهُ هو المعبودُ المطاع الذي تألُهه القلوبُ بالمحبةِ والتعظيم، والخضوع والخوف، وتوابع ذلك من بقية أنواع العبادة.

واسم «الله» عَلَمٌ على ذات الرب تعالى المقدسة، لا يُطلق إلا عليه سبحانه وتعالى، وأصلُه «إله»، حذفت الهمزة، وعوض مكانها «أل» التعريف.

فهذه الكلمةُ العظيمةُ تشتملُ على ركنين أساسيين :

الأول : النفي، وهو نفيُ الإلهيةِ عن كل ما سوى الله تعالى، ويدل عليه كلمةُ «لا إله»، فهي تنفي أن يكون غيرُ الله تعالى مستحقاً للعبادة.

الركن الثاني : الإثبات، وهو إثباتُ الإلهية لله تعالى، ويدل عليه كلمة «إلا الله»، فهي تُثبِت أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فالله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده لأنه هو الخالق، الرازق، المالك، المدبر لجميع الأمور، فيجب على جميع العباد أن يُفردوه بالعبادة شكراً له على نعمِه العظيمةِ عليهم.

فهذه الكلمةُ هي حقاً : كلمةُ التوحيد، والعروةُ الوثقى، وكلمةُ التقوى، وفي

شأنها تكون السعادةُ والشقاوةُ في الدنيا وفي القبر ويوم القيامة، فبالتزامها والقيامِ بحقوقها تثقل الموازين، وبها تكون النجاةُ من النار بعد الوِرد، والفوزُ بجنات النعيم، وبعدم التزامها أو التفريطِ في حقوقها تخف الموازين، ويكون العذابُ في القبر ويوم القيامة.

وهي حق الله على جميع العباد، وهي أول واجب وآخر واجب، فهي أول ما يدخل به العبدُ في الإسلام، وآخر ما ينبغي أن يخرج به من الدنيا..

وهي سببٌ لعصمة دم المسلمِ ومالِه وعرضِه إلا بحقها، وبها انقسمت الخليقةُ إلى مؤمنين وكفار، وأبرار وفجار...

ثانياً : شروطُها ونواقضُها :

دلت النصوصُ الشرعيةُ الكثيرةُ على أن الفوائد والفضائلَ العظيمةَ لكلمة التوحيد – التي سبقت الإشارةُ إلى بعضها – والتي من أهمها : الحكم بإسلام صاحبها، وعصمة دمه ومالِه وعرضه، ودخول الجنة، وعدم الخلود في النار...دلَّت النصوصُ على أنّ هذه الفضائلَ لكلمة التوحيد لا تحصل لكل مَن نطق بهذه الكلمة، بل لا بد من توافر جميع شروطها، وانتفاءِ جميع نواقضها، فكما أن الصلاة لا تُقبل ولا تنفع صاحبَها إلا إذا توافرت جميعُ شروطها، وانتفت مبطِلاتُها : فكذلك هذه الكلمة، لا تنفع صاحبَها إلا باستكمال شروطها وانتفاء نواقضها.

ولذلك لما قيل لوهب بن منبه – رحمه الله تعالى – : أليس مفتاحُ الجنة «لا إله إلا الله» ؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جئتَ بمفتاح له أسنان

فتح لك، وإلا لم يفتح لك[١].

ولما قيل للحسن البصري رحمه الله : إن ناساً يقولون : مَن قال لا إله إلا الله دخلَ الجنة؟ قال : مَن قال «لا إله إلا الله» فأدّى حقَّها وفَرْضَها دخل الجنة.

ومن أجل عدم تحقُّق بعض هذه الشروط لم تنفع هذه الكلمةُ جميعَ المنافقين الذين نطقوا بها وفعلَ كثيرٌ منهم بعضَ شعائر الإسلام الظاهرة.

ويدل على وجوب توفُّر شروط هذه الكلمةِ وعلى وجوب انتفاءِ موانعِها على وجه الإجمال قولُه ﷺ : «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا (لا إله إلا الله) : عصموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله »[٢]، فيدخل في حقها : الإتيانُ بشروطها، واجتنابُ نواقضها.

أ- شروطُ «لا إله إلا الله» : وقد دلّت النصوصُ الشرعيةُ على أن لهذه الكلمةِ العظيمةِ سبعةَ شروط، وهي:

الشرط الأول : العلمُ بمعناها الذي تدل عليه، فيعلم أنه لا أحدَ يستحق العبادةَ إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

الشرط الثاني : اليقين المنافي للشك، فلا بد أن يؤمن إيماناً جازماً بما تدل عليه هذه الكلمةُ من أنه لا يَستحق العبادةَ إلا الله تعالى؛ فإن الإيمانَ لا يكفي فيه إلا علمُ اليقين، لا الظن ولا التردد، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

---

(١) رواه البخاري تعليقاً في فاتحة الجنائز، ووصله الحافظ في (تغليق التعليق) (2/ 453-454).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ 1399) من حديث عمر، ورواه مسلم (ح/ 20، 21، 22) من حديث عمر، وأبي هريرة، وعبدِ الله بن عمر، وجابر رضي الله عنهم، واللفظ له.

فمَن كان غير جازم في إيمانه بمدلول هذه الكلمة، أو كان شاكاً مرتاباً أو متوقفاً في ذلك : لم تنفعه هذه الكلمةُ شيئاً.

الشرط الثالث : القبول المنافي للرد، فيقبل بقلبه ولسانه جميعَ ما دلَّت عليه هذه الكلمة، ويؤمن بأنه حق وعدل، قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: 35-36].

فمَن نطقَ بهذه الكلمةِ ولم يقبل بعضَ ما دلّت عليه إما كبراً أو حسداً أو لغير ذلك : فإنه لا يستفيدُ من هذه الكلمةِ شيئاً.

الشرط الرابع : الانقيادُ المنافي للترك، فينقادُ بجوارحه بفعل ما دلّت عليه هذه الكلمةُ من عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22]، ومعنى ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾: ينقاد، ومعنى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ : أي موحِّد.

فمَن قالها وعرفَ معناها ولم ينقد بالإتيان بحقوقها ولوازمِها من عبادة الله، والعملِ بشرائع الإسلام، ولم يعمل إلا ما يوافقُ هواه أو ما فيه تحصيل دنياه : لم يستفد من هذه الكلمة شيئاً.

الشرط الخامس : الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقول هذه الكلمةَ صدقاً من قلبه، يوافقُ قلبُه لسانَه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1-3].

ولذلك لم ينتفع المنافقون من نطقهم بهذه الكلمة؛ لأن قلوبَهم مكَذِّبَةٌ بمدلولها، فهم يقولونها كذباً ونفاقاً.

الشرط السادس : الإخلاص المنافي للشرك، فلا بد من تصفيةِ العملِ بصالح النيةِ عن جميع شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: 2]، فمَن أشرك بالله تعالى في أي نوع من أنواع العبادة: لم تنفعه هذه الكلمة.

الشرط السابع : المحبة، فلا بد أن يحبَّ المسلمُ هذه الكلمةَ ويحبَّ ما دلّت عليه، ويحبَّ أهلَها العاملين بها الملتزمين بشروطها، ويُبغضَ ما ناقضَ ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

ب- نواقضُ «لا إله إلا الله » : أما نواقضُ لا إله إلا الله – وتسمى نواقض الإيمان ونواقض التوحيد – وهي الخصال التي تحصل بها الردة عن دين الإسلام : فهي كثيرة، وهي تجتمعُ في ثلاثة نواقض رئيسة، وهي : الشرك الأكبر، والكفر الأكبر، والنفاق الاعتقادي، وهي كلها تناقض أصلَ الإيمان.

وهناك وسائل إلى الشرك الأكبر، وهي وإن لم تكن تناقض أصلَ الإيمان، إلا أنها من منقِصاته، وسيأتي الحديث عنها كلها في الباب السابع إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث : العبادة :

العبادةُ في اللغة : الذل، يُقال : طريقٌ مُعَبَّد؛ إذا كان مذَلَّلاً قد وطأته الأقدام.

وأما العبادة شرعاً : فقد اختلفت عباراتُ العلماء في المبنى مع اتفاقهم في المعنى:

فعرفها طائفةٌ منهم بأنها : ما أُمِرَ به شرعاً من غير اطِّرادٍ عرفي ولا اقتضاءٍ عقلي.

وعرّفها بعضُهم بأنها : كمالُ الحب مع كمال الخضوع(١).

وعرّفها بعضُهم بأنها : اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(٢).

وهذا التعريفُ أدقُّ وأشمل؛ فالدينُ كله داخلٌ في العبادة، ومَن عرَّفها بكمال الحب مع كمال الخضوع : فلأن الحبَّ التامَّ مع الذلِّ التام يتضمنان طاعةَ المحبوب والانقيادَ له، فالعبدُ هو الذي ذلَّلَـه الحبُّ والخضوعُ لمحبوبه، فبحسب محبة العبدِ لربِّه وذُلِّه له تكون طاعتُه، فكمال محبة العبد لربه وذلُّه له يتضمنان عبادتَه له وحده لا شريك له.

فالعبادةُ المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، وهي تتضمن ثلاثة أركان هي : المحبة، والرجاء، والخوف، ولا بد من اجتماعها؛ لأن مَن تعلق بواحدٍ منها فقط : لم يكن عابداً لله تمام العبادة :

- فعبادةُ الله تعالى بالحب فقط : هي طريقةُ مُنْحَرِفي الزهاد.
- وعبادتُه بالرجاء وحده : طريقةُ المرجئة.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله :

وعبادة الرحمن غايةُ حبه * معْ ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلكُ العبادةِ دائــرٌ * ما دارَ حتى قامت القطبان

(٢) قاله شيخ الإسلام في (العبودية) (ص/ ٤).

- وعبادتُه بالخوف فقط : طريقةُ الخوارج.

والمحبةُ المنفرِدةُ عن الخضوع لا تكون عبادة؛ فمَن أحبَّ شيئاً ولم يخضع له : لم يكن عابداً، كما يحب الإنسانُ ولدَه وصديقَه، كما أن الخضوعَ المنفرِدَ عن المحبة لا يكون عبادة، كمَن يخضعُ لسلطانٍ أو ظالِـمٍ اتقاءً لشَرِّه. ولهذا لا يكفي أحدُهما عن الآخر في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله تعالى أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء.

والعبادةُ هي الغاية المحبوبةُ لله تعالى والمرضية له، وهي التي خلَقَ الخلقَ من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وبها أرسلَ جميعَ الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

والعبادةُ لها أنواعٌ كثيرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبِرُّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الحيوان والأيتام والمساكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقرآن : كل ذلك من العبادة.

وكذلك حبُّ الله تعالى وحب رسوله ﷺ ، وخشيةُ الله تعالى والإنابةُ إليه : كل ذلك من العبادة، وكذلك الذبح والنذر والاستعاذة والاستعانة والاستغاثة.

فيجبُ صرفُ العبادة بجميع أنواعها لله تعالى وحده لا شريك له، فمَن صرفَ منها شيئاً لغير الله تعالى – كمَن دعا غيرَ الله تعالى، أو ذبحَ أو نذرَ لغير الله تعالى، أو استعانَ أو استغاثَ بميتٍ أو غائبٍ أو بحيٍّ حاضرٍ فيما لا يقدرُ عليه إلا الله تعالى– :

فقد أشرك الشرك الأكبر، وأذنبَ الذنب الذي لا يُغفَر إلا بالتوبة، سواء صرفَ هذا النوعَ من العبادةِ لصنمٍ أو لشجر أو لحجر أو لنبيٍ من الأنبياء أو وليٍّ من الأولياء حيٍّ أو ميت؛ فإن الله تعالى لا يرضى أن يُشركَ معه في عبادته أحد، لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ولا غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:48]، وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:18]، وقال تعالى :﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:36].

المطلب الرابع

أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان بألوهيّة الله تعالى

لما كانت ربوبيّةُ الله تعالى قد أقرَّت بها الناسُ بموجب فِطَرِهم ونظرِهم في الكون، وكان الإقرارُ به وحده لا يكفي للإيمان بالله تعالى ولا يُنجي صاحبَه من العذاب : ركّزت دعواتُ الرسل عليهم السلام على الإيمان بألوهية الله تعالى، خصوصاً دعوة خاتم الرسل نبينا محمد – عليه وعليهم أفضلُ السلام – فكان يطالب الناسَ بقول «لا إله إلا الله » المتضمِّنة لعبادة الله، وترك عبادة ما سواه، فكانوا ينفرون منه ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5].

وحاولوا مع الرسول ﷺ أن يتركَ هذه الدعوةَ ويخلي بينهم وبين عبادة الأصنام، وبذلوا في ذلك معه كلَّ الوسائل : بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، وهو عليه السلام يقول : والله لو وضعوا الشمسَ بيميني، والقمرَ بشمالي، على أن أتركَ هذا الأمر : لا أتركه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه.

وكانت آياتُ الله تعالى تتنزّلُ عليه بالدعوةِ إلى هذا التوحيد، والردِّ على شبهات المشركين، وإقامةِ البراهين على بطلان ما هم عليه.

وقد تنوعت أساليبُ القرآن الكريم في الدعوةِ إلى توحيد الألوهية، ومنها :

١ – أمرُه سبحانه بعبادته وتركِ عبادةِ ما سواه، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: 36]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:21].

٢ – إخبارُه سبحانه أنه خلقَ الخلقَ لعبادته، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

٣ - إخبارُه أنه أرسلَ جميعَ الرسل بالدعوةِ إلى عبادته والنهيِ عن عبادة ما سواه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:36].

٤ -الاستدلال على توحيد الألوهيةِ بانفرادِه بالرُّبوبيةِ والخلقِ والتدبير، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، وقوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: 37]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17].

٥ -الاستدلال على وجوب عبادتِه سبحانه بانفرادِه بصفاتِ الكمال وانتفاءِ ذلك عن آلهة المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: 65]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، وقولِه عن خليلِه إبراهيم عليه السلام إنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: 42]، وقولِه: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: 14]، وقولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ [الأعراف:148].

٦ -ومنها تعجيزُه لآلهة المشركين، كقوله تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 191-192]، وقولِه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: 56]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: 73]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

٧ -تسفيهُ المشركين الذين يعبدون غيرَ الله، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 66-67]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5].

٨ -ومنها بيانُ عاقبة المشركين الذين يعبدون غيرَ الله، وبيان مآلهم مع مَن عبَدوهم، حيث تتبرّأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 165-167]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5-6]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 40-41]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116].

٩ - ومنها ردُّه سبحانه على المشركين في اتخاذهم الوسائطَ بينهم وبين الله تعالى : بأن الشفاعةَ ملكٌ له سبحانه، لا تُطلبُ إلا منه، ولا يَشفعُ أحدٌ عنده إلا بإذنه بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال تعالى﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر:43-44]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:255]، وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:26]، فبيَّنَ سبحانه في هذه الآيات أن الشفاعةَ ملكه وحده، لا تُطلب إلا منه، ولا تَحصل إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

١٠ -ومنها أنه بيّنَ سبحانه أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم نفعٌ لمن عبدَهم من جميع الوجوه، ومَن هذا شأنه لا يصلُح للعبادة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 22].

١١ -ومنها أنه سبحانه ضرَبَ أمثلةً كثيرةً في القرآن يتّضحُ بها بطلانُ الشرك، من ذلك قولُه سبحانه : ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: 31] :

- فشبَّه سبحانه المشركَ بألوهيَّتِه بالساقطِ من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنه سقطَ من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر.
- وشَبَّهَ الشياطينَ التي تلقفه بالطير التي تمزّق أعضاءَه.
- وشبَّه هواه الذي يُبعِده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد.

هذا مثالٌ واحدٌ من أمثلةٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم ذكرها الله سبحانه لبيان بطلان الشركِ وخسارةِ المشركِ في الدنيا والآخرة.

وما ذُكر هنا من أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى إفراد الله تعالى بألوهيّتِه وإبطال الشرك به قليلٌ من كثير، وما على المسلم إلا أن يقرأ القرآنَ بتدبُّر ليجد الخيرَ الكثير والأدلةَ المُقنِعة والبراهين الساطعة التي ترسخ عقيدةَ التوحيد في قلب المؤمن، وتُقلِعُ منه كلَّ شبهة.

المبحث الثالث

الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته

سبق أن ذكرنا أن التوحيدَ ثلاثة أنواع : توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد سبق الحديث عن النوعين الأولين، وكل نوع من هذه الأنواع جحدَه طائفةٌ من البشر :

١ - فتوحيد الربوبية : جحدَه المعطلةُ الذين أنكروا وجودَ الله تعالى؛ كالدهرية والملاحدة، ومنهم الشيوعية في العصر الحاضر، وإن كان جحودهم له إنما هو في الظاهر مكابرةً منهم.

٢ - أما توحيد الألوهية : فقد جحدَه أكثرُ الخلق، وهو الذي بعثَ الله تعالى رسلَه وأنزلَ كتبَه بالدعوة إليه، وقد جحده المشركون قديماً وحديثاً، وجحودُهم له يتمثل في عبادة الأشجار والأحجار والأصنام والقبور...

٣ - وأما توحيد الأسماء والصفات: فقد جحده الجهميةُ ومَن تابعهم من المعتزلة وغيرهم من بعض الفرق الإسلاميةِ، على تفاوتٍ بينهم في الجحود.

وهذا القسمُ داخلٌ في توحيد الربوبية، لكن لما كثُرَ منكروه وروّجوا الشبَهَ حولَه : أُفرِدَ بالبحث، وجُعل قسماً مستقلاً، وأُلِّفَت فيه المؤلفات الكثيرة.

والمرادُ بتوحيد الأسماء والصفات إثبات ما أثبتَه الله تعالى لنفسه أو أثبتَه له رسولُه ﷺ من صفات الكمال، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه أو نفاه عنه رسولُه ﷺ من صفات النقص، على حدِّ قول الله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

ولْيُعلَم أن أسماءَ الله تعالى وصفاتِه من الغيب الذي لا يَعرفه الإنسانُ على وجه

التفصيل إلا بطريق السمع؛ لأن البشرَ لا يُحيطون بالله تعالى علماً، كما قال تعالى﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، والكلامُ في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات.

فلا يمكن للعقل البشريِّ أن يستقِلَّ بالنظرِ في أسماء الله تعالى وصفاتِه ومعرفتِها على التفصيل إثباتاً ونفياً، ومَن فعلَ شيئاً من ذلك فقد ضلَّ عن الصراط المستقيم.

فيجبُ على العبد أن يقفَ عند كلام الله تعالى وكلامِ رسوله ﷺ ، فيؤمن بجميع ما ثبتَ في النصوص الشرعيةِ من أسماء الله تعالى وصفاتِه، وينفي عنه تعالى ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسولُه ﷺ .

وقد دلّت النصوصُ الشرعيةُ الكثيرةُ على إثبات صفاتِ الكمال لله تعالى على وجه التفصيل، فيجب إثباتُها له تعالى على الوجه اللائقِ بجلاله، كما دلّت النصوصُ أيضاً على نفي صفاتِ النقص عنه تعالى، فيجبُ نفيُها عنه وإثبات كمال ضدها له سبحانه وتعالى، وهذا هو الحقُّ الواجبُ في أسماء الله تعالى وصفاتِه على وجه الإجمال.

والحديث عن هذا النوع من التوحيد سيكون في المطالب الثلاثة الآتية :

المطلب الأول : طريقةُ أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاتِه :

طريقةُ أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاتِه يمكن تلخيصُها في ثلاثة أمور رئيسة، وهي :

الأول : طريقتُهم في الإثبات :

طريقتُهم في الإثبات : إثباتُ ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف [١] ....،

---

(١) التحريفُ معناه : تغييرُ النص لفظاً أو معنى، والتغييرُ اللفظي قد يتغير معه المعنى وقد لا يتغير، فهذه ثلاثةُ أقسام:

ولا تعطيل (١)، ومن غير تكييف (٢)، ولا تمثيل (٣)، فيؤمنون بأن جميع ما ثبتَ في النصوص الشرعيةِ من صفات الله تعالى : أنها صفاتٌ حقيقيةٌ تليق بجلال الله

---

١ -تحريف لفظي يتغير معه المعنى، كتحريف بعضِهم قولَه تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالةِ ليكون التكليمُ من موسى.

٢ -وتحريف لفظي لا يتغير معه المعنى، كفتح الدال من قوله تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذا في الغالب لا يقع إلا من جاهل؛ إذ ليس فيه غرضٌ مقصودٌ لفاعله غالباً.

٣ -تحريف معنوي : وهو صرفُ اللفظِ عن ظاهره بلا دليل، وهذا كثيرٌ عند المعطلة، من الجهميةِ والمعتزلةِ وغيرِهم، حيث يتأولون نصوصَ الصفاتِ على غير تأويلها، ويدّعون فيها صرفَ اللفظ عن الاحتمال الراجحِ إلى الاحتمال المرجوحِ بغير دليل سوى آرائهم وشبهاتِهم الفاسدة التي ظنوها بينات، فتأويلُهم لنصوص الصفات حقيقتُه تحريفٌ لكلام الله تعالى وكلامِ رسوله ﷺ عن مواضعه، وافتراءٌ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ؛ فإن التأويلَ الصحيح هو الذي يوافقُ ما جاء في الكتاب والسنة، وما خالفَ ذلك فهو باطل؛ فإن كل تأويل لم يدل عليه دليلٌ من السياق ولا معه قرينةٌ تقتضيه : فهذا لا يقصده الهادي المبين بكلامه؛ إذ لو قصده لَـحَفَّ به قرائنَ تدل على المعنى المخالفِ لظاهره؛ حتى لا يوقعَ السامعَ في اللبس والخطأ؛ فإن الله تعالى أنزل كلامَه بياناً وهدًى، فإذا أرادَ به خلافَ ظاهره ولم يُلحق به قرائنَ تدل على المعنى الذي يتبادرُ غيرُه إلى فهم كل أحد : لم يكن بياناً ولا هدى، فالتأويلُ إخبارٌ بمراد المتكلم لا إنشاء، فإذا قيل : «معنى اللفظِ كذا وكذا» : كان إخباراً بالذي عناه المتكلمُ وأراده بكلامه، فإن لم يكن الخبرُ مطابقاً : كان كذباً عليه.

(١) التعطيل معناه : إنكارُ ما يجبُ لله تعالى من الأسماء والصفات، أو إنكارُ بعضها، فهو نوعان :

١ -تعطيل كلي : كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الأسماءَ والصفات.

٢ -تعطيل جزئي : كتعطيل المعتزلة الذين ينكرون الصفات دون الأسماء، وكتعطيل بعض الفرق الكلاميةِ الذين ينكرون بعضَ الصفات ويؤولونها، ويثبتون بعضَ الصفات.

(٢) التكييفُ معناه : حكايةُ كيفية الصفة، كقول القائل : كيفيّةُ يد الله تعالى كذا وكذا، وكيفيّةُ نزوله تعالى إلى السماء الدنيا كذا وكذا... وقد يُقيّد أو يقرن هذه الكيفيّةَ بمماثلٍ فيقول مثلاً : نزولُ الله تعالى كيفيّتُه : كنزول المطر، تعالى الله عن ذلك، فيجمع بين التكييف والتمثيل.

(٣) التمثيل : إثباتُ مثيلٍ للشيء، كأن يقول : يدُ الله تعالى مثل يد الإنسان، تعالى الله عن ذلك.

تعالى، وأنها لا تماثلُ صفاتِ المخلوقين.

ويؤمنون كذلك بجميع أسماء الله تعالى الثابتة في النصوص الشرعية، ويؤمنون بأن كل اسمٍ يتضمن صفةً لله تعالى، فالاسم «العزيز» يتضمن صفةَ العزة لله تعالى، والاسم «القوي» يتضمن صفةَ القوة له سبحانه، وهكذا بقية الأسماء.

وكلُّ ما ثبتَ لله تعالى من الصفات فهي صفاتُ كمال يُحمد عليها، ويُثنى بها عليه، وليس فيها نقصٌ بوجه من الوجوه، بل هي ثابتة له على أكمل وجه.

الأمر الثاني: طريقتُهم في النفي:

طريقتُهم في النفي: نفيُ ما نفاه الله تعالى عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ من صفات النقص، مع اعتقادهم ثبوتَ كمال ضد الصفة المنفيّةِ عن الله جلَّ وعلا.

وكلُّ ما نفاه الله تعالى عن نفسه فهي صفاتُ نقص، تنافي كمالَه الواجب، فجميعُ صفات النقص ممتنعةٌ على الله تعالى لوجوب كماله.

وما نفاه الله تعالى عن نفسه: فالمرادُ به انتفاءُ تلك الصفة المنفيةِ وإثباتُ كمال ضدها، وذلك أن النفيَ لا يدل على الكمال إلا إذا كان متضمِّناً لصفةٍ ثبوتيةٍ يُحمد عليها؛ فإن مجرد النفي قد يكون سببُه العَجزُ فيكون نقصاً، كما في قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يَغدرون بذمَّةٍ * ولا يَظلمون الناسَ حَبَّةَ خردل

وقد يكون سببُه عدمُ القابلية فلا يقتضي مدحاً، كما لو قلت: الجدارُ لا يظلم.

إذا تبين هذا: فمما نفى الله تعالى عن نفسه (الظلم)، والمرادُ به انتفاءُ الظلم عن الله تعالى مع ثبوت كمال ضده له تعالى، وهو (العدل)، ونفى عن نفسه (اللغوب)، وهو التعبُ والإعياء، والمراد: نفي اللغوب مع ثبوت كمال ضده له تعالى، وهو القوة، وهكذا بقية ما نفاه الله تعالى عن نفسه.

الأمر الثالث : طريقتُهم فيما لم يَرِد نفيُه ولا إثباتُه في الكتاب والسنة :

طريقتُهم فيما هذا سبيلُه مما تنازع الناسُ فيه، كالجسم، والحيز، والجهة، ونحو ذلك : التوقفُ في اللفظ والاستفصالُ في المعنى.

فأما اللفظ : فيتوقفون فيه فلا يُثبتونه لِعَدَم وُرُودِه، ولا ينفونه؛ لأنه قولٌ على الله بغير علم[1].

وأما معناه : فيستفصلون عنه : فإن أريد به باطلٌ يُنَزَّه الله تعالى عنه : رَدُّوه، وإن أريد به حق لا يمتنعُ على الله تعالى : قبلوه.

وهذه الطريقةُ هي الطريقةُ الواجبة، وهي القولُ الوسطُ بين أهل التعطيل وأهل التمثيل، وقد دلَّ على وجوبها وصحتها العقلُ والسمع :

فأما العقلُ فوجهُ دلالتِه : أن تفصيلَ القول فيما يجب ويجوز ويمتنعُ على الله تعالى أمرٌ لا يُدرك إلا بالسمع؛ لأنه من أمر الغيب الذي لا يُحيط به الإنسانُ علماً، فوجبَ اتباعُ السمع في ذلك بإثبات ما أثبته، ونفيِ ما نفاه، والسكوت عما سكت عنه.

وأما السمع : فمن أدلته قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:180]، وقولُه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، وقولُه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء:36].

فالآيةُ الأولى : دلَّت على وجوب الإثبات من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تمثيل؛ لأن هذه الأمور الثلاثة من الإلحاد.

والآية الثانية : دلَّت على وجوب نفيِ التمثيل مع وجوب الإثبات.

---

(١) كلُّ ما يتعلق بصفات الله تعالى لا يجوز إثباتُه ولا نفيُه إلّا بدليل، إلا إذا كان فيه نقص، فَيُنْفَى عنه سبحانه، كنفي الأسنان والأضراس عنه تعالى؛ لأنها إنما يُحتاجُ إليها لمضغ الأكل، والله سبحانه منَزَّه عن الأكل.

والآية الثالثة : دلَّت على وجوب نفي التكييف، وعلى وجوب التوقفِ فيما لم يَرِد إثباتُه أو نفيُه.

المطلب الثاني : أقسام الصفات :

تنقسمُ صفاتُ الله تعالى من جهة تعلقها بذاته تعالى وأفعالِه إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : صفاتٌ ذاتية :

وهي التي لم يزل ولا يزال الله تعالى متصفاً بها، كالعلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والوجه، واليدين ... ونحو ذلك من الصفات العُلا التي هي من لوازم ذاته تعالى.

القسم الثاني : صفاتٌ فعلية :

وهي الصفاتُ المتعلقةُ بمشيئة الله تعالى وقدرتِه، إن شاء فعلَها، وإن شاء لم يفعلها، كالمجيء، والنزول، والغضب، والفرح، ونحو ذلك، وتسمى : الصفات الاختيارية، أو الأفعال الاختيارية.

القسم الثالث : ذاتيةٌ باعتبار، وفعليةٌ باعتبار آخر :

كصفةِ كلامِه تعالى؛ فإنّ الكلامَ باعتبار أصلِه ونوعِه صفةٌ ذاتيةٌ؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزالُ متصفاً بصفة الكلام، أمّا باعتبار آحاد الكلام وأفرادِه فصفةٌ فعلية؛ لأنّ الكلام يتعلق بمشيئتِه تعالى، فالله سبحانه يُكلِّمُ مَن شاءَ متى شاء كيف شاء، كما قال تعالى : ﴿إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُن فيكون﴾ [يس: 82].

المطلب الثالث

قواعد مهمة في توحيد الأسماء والصفات

هناك قواعد مهمة ونقاط رئيسة نبّه عليها العلماءُ في هذا الباب وهي باختصار:

القاعدة الأولى : القول في الصفات كالقول في الذات :

القولُ في الصفات كالقول في الذات يعني : من حيث الثبوت ونفيُ المماثلة وعدم العلم بالكيفية، فكما أنّ ذات الله تعالى ثابتةٌ حقيقةً : كذلك صفاتُه ثابتةٌ حقيقةً، وكما أنّ ذات الله تعالى لا تُماثِلُ ذوات خلقه : فكذلك صفاتُه سبحانه لا تماثلُ صفاتِ خلقه، وكما أنّ ذاته لا يمكن العلمُ بكيفيّتِها : فكذلك صفاته؛ إذ العلمُ بكيفيَّةِ الصفات فرعٌ عن العلم بكيفيَّة الذات.

فالله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذاتٌ حقيقةً لا تماثل الذوات : فالذات متصفةٌ بصفاتٍ حقيقةً لا تماثل صفاتِ سائر الذوات.

فإذا قال القائل : كيف استوى على العرش ؟

قيل له – كما قال ربيعة ومالك رحمهما الله تعالى- : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة؛ لأنه سؤالٌ عمّا لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال : كيف ينزل ربُّنا إلى سماء الدنيا ؟

قيل له : كيف هو ؟

فإذا قال : أنا لا أعلم كيفيتَه.

قيل له : ونحن لا نعلم كيفيةَ نزوله؛ إذ العلمُ بكيفية الصفةِ يستلزمُ العلمَ

بكيفية الموصوف، وهو فرعٌ له وتابعٌ له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفيةِ سمعه وبصره وتكليمِه ونزولِه واستوائه، وأنت لا تعلم كيفيةَ ذاته ؟!

وإذا كنت تقر بأنّ له ذاتاً حقيقةً، ثابتة في نفس الأمر، مستوجبةٌ لصفات الكمال، لا يماثلها شيء : فسمعُه وبصرُه وكلامُه ونزولُه واستواؤه ثابتٌ في نفس الأمر، وهو متصفٌ بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمعُ المخلوقين وبصرُهم، وكلامُهم ونزولُهم واستواؤهم.

القاعدة الثانية : القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر :

بهذه القاعدة يُردُّ على الذين يُثبتون بعضَ الصفات وينفون بعضَها، كالذين يُثبتون لله تعالى الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، ويجعلونها صفاتٍ حقيقية، ثم ينازعون في محبة الله تعالى ورضاه، وغضبِه وكراهيتِه، ويجعلون ذلك مجازاً، أو يفسرونه بالإرادة، أو يفسرونه بالنعم والعقوبات.

فيقال لهؤلاء : لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه، بل القولُ في أحدهما كالقول في الآخر، فإن كنتم تقولون : حياتُه وعلمُه كحياة المخلوقين وعلمِهم : فيلزمُكم أن تقولوا في رضاه ومحبتِه كذلك.

وإن قلتم : له حياةٌ وعلمٌ وإرادة تليق به، ولا تشبه حياةَ المخلوقين وعلمَهم وإرادتَهم : فيلزمُكم أن تقولوا في رضاه ومحبتِه كذلك.

وإن قلتم : إن الغضبَ غليانُ دم القلبِ لطلب الانتقام؛ فكذلك يقال : الإرادةُ ميلُ النفس إلى جلب مصلحةٍ أو دفع مضرة.

فإن قلتم : هذه إرادة المخلوق، قلنا : هذا غضبُ المخلوق.

وكذلك يُلزَمُ بالقولِ في كلامه، وسمعِه، وبصرِه، وعلمِه، وقدرتِه ؛ فيُقال له:

إن نفيتَ عن غضبِه تعالى ومحبَّتِه ورضاه ونحوِ ذلك : ما هو من خصائص المخلوقين = فهذا حقٌّ، وهو – أي : ما هو من خصائص المخلوقين – منتَفٍ عن السمع، والبصرِ، والكلام، وجميعِ الصفات.

وإن قلت : إنه لا حقيقةَ للغضبِ والمحبَّةِ والرضا ونحوِه إلّا ما يختصُّ بالمخلوقين، فيجب نفيُه عنه تعالى..

قيل لك : وهكذا السمعُ، والبصرُ، والكلامُ، والعلمُ، والقدرة، فيلزمُكَ نفيُها أيضاً.

فهذا المُفَرِّقُ بين بعض الصفات وبعض : يُقال له فيها نفاه كما يَقولُه هو لِمُنازِعِه فيما أثبتَه، فإذا قال المعتزِليُّ : ليس له إرادةٌ، ولا كلامٌ قائمٌ به؛ لأنّ هذه الصفاتِ لا تقومُ إلاّ بالمخلوقات : فإنه[1] يُبيِّنُ للمعتزِلي أنّ هذه الصفاتِ يتصفُ بها القديم، ولا تكون كصفاتِ المحدَثات؛ فهكذا يقولُ له المثبِتون لسائرِ الصفات، من المحبة، والرضا، ونحو ذلك.

وهذه القاعدة تتضح بالقاعدة اللاحقة.

القاعدة الثالثة : الاتفاقُ في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسَمَّيات :

إنّ الاشتراكَ في الأسماء والصفات لا يستلزمُ تماثُلَ المسمَّياتِ والموصوفات، كما دلَّ على ذلك : السمعُ، والعقل، والحس.

أمّا السمع : فقد قال تعالى عن نفسِه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: 58]، وقال عن الإنسان : ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ

(١) أي : مَن يُثبت بعضَ الصفات وينفي بعضَها.

فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]، ونفى أن يكون السميعُ كالسميع، والبصيرُ كالبصير، فقال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وكذلك سمّى الله تعالى نفسَه حياً، حليماً، رؤوفاً، رحيماً، مَلِكاً، مؤمناً، عزيزاً، جباراً، متكبِّراً، وسمّى بعضَ عباده بتلك الأسماءِ نفسِها، ولكن ليس الحيُّ الخالقُ كالحي المخلوق، ولا العليمُ كالعليم، ولا الحليمُ كالحليم، وكذلك في بقية الأسماء.

كما أنه تعالى أثبتَ لنفسِه علماً، وللإنسانِ علماً، فقال عن نفسِه : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235]، وقال عن الإنسان: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 10]، وليس علمُ الإنسان كعلم الله تعالى، فقد قال تعالى عن علمه :﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: 98]، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 5]، وقال عن علم الإنسان :﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85].

وكذلك وصفَ الله تعالى نفسَه بالقوة، والإرادة، والمحبة، والرضا، والمقت، والغضب، والمناداة، والمناجاة، والتكليم، والتعليم، والاستواء، وبسط اليدين، والإعطاء ونحو ذلك من الصفات،ووصفَ بعضَ خلقه بهذه الصفات أيضاً، ولكن ليس قوةُ الله كقوة خلقه، ولا الإرادة كالإرادة، ولا المحبة كالمحبة، ولا الرضا كالرضا، وكذلك بقية الصفات.

وأمّا الدليل العقلي : فمن المعلوم بالعقل أنّ المعانِي والأوصاف تتقيّدُ وتتميّزُ بحسب ما تُضافُ إليه، فكما أنّ الأشياءَ مختلفةٌ في ذواتها : فإنها كذلك مختلفةٌ في صفاتِها، وفِي المعانِي المضافةِ إليها؛ فإنّ صفةَ كل موصوفٍ تناسِبُه، لا يُفهَمُ منها ما

يقصرُ عن موصوفِها أو يتجاوزُه، ولهذا نَصِفُ الإنسانَ باللِّين، والحديدَ المنصَهِرَ باللِّين، ونعلم أنّ اللِّينَ متفاوِتُ المعنى بحسب ما أضيفَ إليه.

وأمّا الحس : فإننا نشاهِدُ للفيل جسماً، وقَدَماً، وقوةً، وللبعوضةِ كذلك جسماً، وقدَماً، وقوةً، ونعلم الفرقَ بين جسميهما، وقدَميهما، وقوتَيهما.

فإذا عُلِمَ أنّ الاشتراكَ في الاسمِ والصفةِ في المخلوقات لا يستلزمُ التماثلَ في الحقيقة، مع كون كلٍّ منهما مخلوقاً ممكِناً : فانتفاءُ التلازُمِ في ذلك بين الخالِقِ والمخلوقِ أولى وأجلى، بل التماثُلُ في ذلك بين الخالقِ والمخلوقِ ممتنِعٌ غايةَ الامتناع(١).

وهذه القاعدة تتضح بالقاعدتَين السابقتَين.

وقد ضربَ العلماء مَثَلَين مهمين لبيان هذه القاعدة - وهي : أنّ القدرَ المشتركَ بين الأسماء والصفاتِ لا يستلزمُ التشبيه - وهما :

المثالُ الأول : نعيم الجنة :

قد أخبر الله تعالى أنّ في الجنةِ طعاماً، وشراباً، ولباساً، وزوجاتٍ، ومساكن، ونخلاً، ورماناً، وفاكهةً، ولحماً، وخمراً، ولبناً، وعسلاً، وغير ذلك، وكلُّه حق على حقيقتِه، وهو في الاسم موافقٌ لِمَا في الدنيا من حيث المعنى، لكنه مخالِفٌ له في الحقيقة :

أمّا موافقتُه لِمَا في الدنيا في المعنى: فلأنّ الله تعالى قال عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:3]، ولولا موافقتُه له في المعنى: ما فهمناه ولا عقلناه.

---

(١) انظر : (تقريب التدمرية) للشيخ ابن عثيمين - ضمن فتاواه - (4/ 117-118).

وأمّا مخالفتُه له في الحقيقة : فلقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، وقولِه ﷻ في الحديث القدسي : «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر» [(١)]، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «ليس في الدنيا مما في الجنةِ إلاّ الأسماء»[(٢)].

فإذا كانت هذه الأسماءُ دالةً على مسمّياتِها حقيقةً، وكان اتفاقُها مع ما في الدنيا من الأسماء لا يستلزمُ اتفاقَ المسمَّياتِ في الحقيقة، بل بينهما من التبايُنِ ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى : فإنّ مباينةَ الخالقِ للمخلوقِ أعظمُ وأظهرُ من مباينة المخلوقِ للمخلوق؛ لأنّ التبايُنَ بين المخلوقات تبايُنٌ بين مخلوقٍ ومخلوقٍ مثلِه، فإذا ظهرَ التبايُنُ بين المخلوقات : كان ما بينها وبين الخالق أظهرُ وأولى.

المَثَلُ الثانِي : الروح التي فينا، والتي بها الحياة، وهي أقربُ شيءٍ إلى الإنسان، بل هي قوام الإنسان، وقد وُصِفت في النصوص بأنها تَعرُجُ وتَصعَد من سماء إلى سماء، وأنها تُقبَضُ من البدن، وتُسَلُّ منه كما تسَلُّ الشعرةُ من العجين، كما في روح المؤمن، أما روحُ الكافر : فتُنزَعُ من بدنه كما يُنتَزَعُ السفودُ من الصوف المبلول [(٣)]، ولا يُنكِرُ أحدٌ وجودَها حقيقةً، وقد عجَزَ الناسُ عن إدراكِ كنهها وحقيقتها إلاّ ما علموه عن طريق الوحي، واضطربوا فيها - فلاسفةً، ومتكلمين، وغيرهم -

---

(١) متفق عليه من حديث أبِي هريرة ﷺ، أخرجه البخاريُّ (ح/ 3244)، ومسلم (ح/ 2824/ 2-4).

(٢) أخرجَه ابنُ جرير في تفسيره (1/ 416) في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة : 25]، وكذلك ابنُ أبِي حاتم في تفسيره (1/ 66-برقم/ 260)، والبيهقي في (البعث والنشور) (368) وغيرُهم، وصححه الشيخ الألبانِيُّ في (الصحيحة) (5/ 219-220-برقم/ 2188).

(٣) كما وردَ في حديث البراء بن عازبٍ ﷺ الطويل، وسيأتي في الباب الخامس.

اضطراباً كثيراً، لكونهم لا يُشاهدون لها نظيراً.

فإذا كانت الروحُ حقيقة، واتصافُها بما وُصِفَت به في الكتاب والسنة حقيقة، مع أنها لا تماثِلُ الأجسامَ المشهودة : كان اتصافُ الخالق بما يستحقُّه من صفات الكمال - مع مبايَنَتِه للمخلوقات - من باب أولى، وكان عَجزُ أهل العقولِ عن أن يحدّوا الله تعالى أو يُكيِّفوه أبينَ من عَجزِهم عن حدِّ الروح وتكييفِها.

وإذا كان مَن نفى صفاتِ الروح جاحداً معطِّلاً، ومَن مَثَّلَها بما يُشاهد من المخلوقاتِ جاهلاً بها ممثلاً : فالخالقُ سبحانه أولى أن يكون مَن نفى صفاتِه جاحداً معطِّلاً، ومَن قاسَه بخلقه جاهلاً به ممثلاً[1].

---

(١) انظر : (تقريب التدمرية) (4/ 141-144).

الباب الثاني

الإيمان بالملائكة

الإيمانُ بالملائكة ركن من أركان الإيمان، لا يتم الإيمانُ إلا به، قال تعالى :

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ..﴾ [البقرة: 177]، وقال النبيُّ ﷺ عن الإيمان – في حديث جبريل عليه السلام المشهور – : «أن تؤمن بالله، وملائكتِه، وكتبه، ورسلِه، واليوم الآخر، والقدرِ خيرِه وشرِّه»(١).

والإيمانُ بالملائكة يكون بالتصديق بوجودهم، وأنهم عالَمٌ غيبيٌّ لا يُشاهَدون، وقد يُشاهَدون ولكن الأصل أنهم عالَمٌ غيبي، وأنهم عبادٌ مكرمون، خلقهم الله لعبادته وتنفيذِ أوامره، والإيمان بأصنافهم وأوصافِهم وأعمالِهم التي يقومون بها حسبما وردَ في الكتاب والسنة، والإيمان بفضلهم ومكانتهم عند الله عز وجل ، وأنهم مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله تعالى عليه.

وقد خلقهم الله تعالى من نور، كما في حديث عائشة أمِّ المؤمنين – رضي الله عنها – أن رسولَ الله ﷺ قال : «خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم»(٢).

ولا ندري متى خُلقوا، فالله سبحانه لم يُخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أن خلقَهم سابقٌ على خلق آدم أبي البشر، فقد أخبرنا الله تعالى أنه أعلمَ ملائكتَه أنه جاعلٌ في

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أخرجه البخاري (ح/ 50)، ومسلم (ح/ 9)، ومن أفراد مسلم من حديث ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – وهو أول حديثٍ فيه.

(٢) رواه مسلم (ح/ 2996).

الأرض خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، والمرادُ بالخليفةِ آدمُ عليه السلام ، وأمرَهم بالسجود له حين خلقِه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

من أهم الصفات الخَلْقية :

عِظَمُ خلقهم : قال تعالى في ملائكة النار : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، ومما يدل على عظم خلقهم :

- أن النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام على صورته الحقيقيةِ التي خلقه الله تعالى عليها مرتين، وهما المذكورتان في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: 23]، وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: 13-15]، عندما عُرِجَ به إلى السماوات العلى.

وسألت عائشةُ-رضي الله عنها-رسولَ الله ﷺ عن هاتين الآيتَين فقال ﷺ : «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهَبِطاً من السماء، سادّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»[١].

وسُئلت عائشةُ – رضي الله عنها – عن قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فقالت : «إنما ذلك جبريل عليه السلام ، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورتُه، فسَدَّ أفقَ السماء»[٢].

---

(١) رواه مسلم (ح/ 177/ 287).

(٢) رواه مسلم (ح/ 177/ 290).

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «رأى محمد ﷺ جبريلَ له ستمائة جناح»[١].

• وفي حديث جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلَة العرش: إن ما بين شحمة أُذُنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام»[٢].

وسأذكر هنا بعضاً من أهم صفات الملائكة الخَلْقية، وهي:

1- أجنحة الملائكة: للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى، فمنهم مَن له جناحان، ومنهم مَن له ثلاثة، أو أربعة، ومنهم مَن له أكثر من ذلك، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1]، وقد سبق أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح.

2- جمال الملائكة: خلقَهم الله على صور جميلةٍ كريمة، كما قال تعالى في جبريل: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: 5-6]. قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو منظرٍ حسن، وقال قتادة رحمه الله: ذو خلق حسن، وقيل: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو قوة، ولا منافاة بين القولين، فهو قوي وحسن المنظر.

3- تفاوتُهم في الخَلق والمنزلة: تقدم الحديث عن تفاوت أجنحة الملائكة، وهذا يدل أيضاً على تفاوتهم في الخلق.

وكذلك يتفاوتون في المنزلة عند الله تعالى، فلهم عند ربهم عز وجل مقاماتٌ

---

(١) صحيح البخاري (ح/ 4856، 4857).

(٢) رواه أبو داود (ح/ 4727)، والحديث صحيح.

متفاوتة معلومة : ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: 164]، وقال تعالى في جبريل عليه السلام : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 19-20]، أي : له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ عند الله تعالى.

ومن أفضلِ الملائكة : الذين شهدوا معركةَ بدر، ففي الحديث عن رفاعة ابن رافع رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام جاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : «ما تعدُّون أهلَ بدر فيكم ؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها، قال: وكذلك مَن شهدَ بدراً من الملائكة»[1].

4- لا يملّون ولا يتعبون : والملائكةُ يقومون بعبادة الله وطاعتِه وتنفيذ أوامره بلا كَلَل ولا ملل، ولا يُدركُهم ما يُدركُ البشرَ من ذلك، قال تعالى في وصف ملائكتِه : ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20]، ومعنى ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾: لا يضعفون، وقال تعالى : ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ [فصلت: 38]، ومعنى ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي : لا يملون.

5- أعداد الملائكة : الملائكة خلقٌ كثير لا يَعلم عددَهم إلا الذي خلقَهم : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، ومما يدل على كثرتهم : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سألَ جبريلَ عليه السلام عن البيت المعمور ليلة الإسراء فقال : «هذا البيتُ المعمورُ، يصلي فيه في كل يوم سبعون ألف ملَك، لا يعودون إليه، آخرُ ما عليهم»[2].

---

(١) رواه البخاري (7/ 312ح/ 3992).

(٢) رواه البخاري (6/ 103ح/ 2207)، ومسلم (1/ 146ح/ 162)، واللفظ للبخاري.

الصفات الخُلُقية :

من صفات الملائكة الخُلُقية أنهم :

1- كرامٌ بَرَرة : وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قولهم : ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: 15-16]، وفي حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسولُ الله ﷺ : «مَثَلُ الذي يقرأ القرآنَ وهو حافظٌ له : مع السفرة الكرام، ومَثَلُ الذي يقرأ القرآنَ وهو يتعاهَدُه وهو عليه شديد : فله أجران»(1).

2- استحياء الملائكة :روت أمُّ المؤمنين عائشةُ – رضي الله عنها – أن الرسولَ ﷺ كان مضطجعاً في بيتها، كاشفاً عن فخذَيه أو ساقَيه، فاستأذنَ أبو بكر، فأذنَ له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذنَ له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذنَ عثمان، فجلس الرسولُ ﷺ وسوّى ثيابَه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابَك ؟ فقال«ألا أستحيي من رجلٍ تستحيي منه الملائكة ؟!»(2).

من قدراتهم :

1- قدرتُهم على التشكل : أعطى الله تعالى الملائكةَ القدرةَ على أن يتشكلوا بغير أشكالهم، فقد أرسلَ الله تعالى جبريلَ عليه السلام إلى مريم في صورة بشر، كما أن إبراهيم عليه السلام جاءته الملائكةُ في صورة بشر، ولم يَعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم، وكل ذلك مذكورٌ في القرآن، كما أن جبريلَ عليه السلام كان يأتي

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (ح/ 4937)، ومسلم (ح/ 798)، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه مسلم (ح/ 2401).

الرسولَ ﷺ في صفاتٍ متعددة، فتارةً يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه (صحابي كان جميل الصورة)، وتارة في صورة أعرابي، وقد شاهده كثير من الصحابة – رضي الله عنهم – عندما كان يأتي كذلك، كما في حديث جبريل عليه السلام المعروف.

2 – عظمُ سرعتِهم : أعظمُ سرعةٍ يعرفها البشرُ هي سرعةُ الضوء، فهو ينطلق بسرعة (186) ألف ميل في الثانية الواحدة.

أما سرعةُ الملائكة : فهي فوق ذلك، وهي سرعةٌ لا تُقاس بمقاييس البشر، كان السائلُ يأتي إلى الرسول ﷺ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريلُ بالجواب من ربِّ العزة – سبحانه وتعالى – واليوم لو وُجدت المراكبُ التي تسيرُ بسرعة الضوء : فإنها تحتاجُ إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعضَ الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع.

3 – مُنَظَّمون في كل شؤونهم : الملائكةُ مُنَظَّمون في عبادتهم، وقد حثنا الرسولُ ﷺ على الاقتداءِ بهم في ذلك فقال : «ألاَ تصُفُّون كما تصُفُّ الملائكةُ عند ربها ؟ »، قالوا : يا رسول الله، وكيف تصُفُّ الملائكةُ عند ربها ؟ قال : «يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف»[1]، وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]، ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]، والروحُ هو جبريل عليه السلام.

مما يدل على شرفهم :

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ 430) عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه –.

- أن الله يُضيفُهم إليه إضافةَ تشريف، كقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، وقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [النساء: 136]، وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: 98].

- ويقرن سبحانه شهادتَهم مع شهادته، وصلاتَهم مع صلاته، كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 18]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 56]

- ويصفهم سبحانه بالكرم والإكرام، قال تعالى : ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: 15]، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: 10]، وقال تعالى : ﴿ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26].

ويصفُهم بالعلو والقُرب، كما في قوله تعالى : ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الصافات: 8]، وفي قوله : ﴿ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 21].

- ويذكر سبحانه أنهم عنده، ويعبدونه ويسبحونه، كما في قوله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: 206]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: 38].

الأعمال التي يقوم بها الملائكة :

الملائكةُ رسُلُ الله تعالى في خلقه وأمرِه، واسمُ الملَكِ يتضمن أنه رسول؛ لأنه من الألوكة، بمعنى الرسالة، قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: 1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: 1]، فهم رسُلُ الله تعالى في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السماءَ والأرض، وهم رسُلُه في تدبير أمره الديني الذي تنزل به على الرسلِ من البشر، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75].

والخلاصة: أن الله تعالى وكَّلَ بالعالَمِ العلوي والسفليِّ ملائكةً تدبِّرُ شؤونَهما بإذنه وأمرِه ومشيئتِه سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، وقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، فلهذا يُضيف سبحانه التدبيرَ إلى الملائكةِ تارةً لكونهم المباشرين له، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، ويُضيفُ إليه التدبيرَ تارةً، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 5]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: 3].

فالملائكةُ بالنسبة إلى الأعمال التي يقومون بهم أصناف:

فمنهم حَمَلةُ العرش، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: 7]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها.

ومنهم الموكلون بالنارِ وتعذيبِ أهلِها، وهم الزبانية، ومُقَدَّموهم تسعة عشر، وخازنُها مالك، وهو مُقَدَّم الخزنة، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 30]، وقوله: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 49]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم في الدنيا، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ...﴾ [الرعد: 11]، أي: معه ملائكةٌ يحفظونه من بين

يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله تعالى : تخلّوا عنه.

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد وكتابتِها، قال تعالى: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: 18–19]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: 10–11]، وقال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار »[1]، فَمَعَ الإنسان ملائكةٌ يحفظونه من المُؤذيات، وملائكةٌ يحفظون عليه أعمالَه وما يصدر منه.

ومن الملائكة مَن هو موكَلٌ بالرحِمِ وشأن النطفة، كما في حديث ابن مسعود ﷺ : «إن أحدَكم يُجمَعُ خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علَقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث اللهُ ملَكاً فيؤمَرُ بأربع كلمات، ويُقال له: اكتُب عملَه، ورزقَه، وأجلَه، وأجلَه، وشقيٌّ أو سعيد»[2].

ومنهم ملائكةٌ موكلون بقبض الأرواح، قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61]، وقال تعالى : ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة:11]، وملَكُ الموت له أعوانٌ من الملائكة، إذا قبضَ الروحَ وأخذَها : تأخذُ منه ملائكةُ الرحمةِ أو ملائكةُ العذاب، ويتولَّونها بعده.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ ، أخرجه البخاري (ح/ 555) ومواضع أخرى، ومسلم (ح/ 632).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في مواضع منها (ح/ 3208)، ومسلم (ح/ 2643).

الباب الثالث

الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب الإلهية هو أحدُ أصول الإيمان وأركانه، وهو الركن الثالث من أركان الإيمان، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

والإيمانُ بها هو : التصديق الجازمُ والإقرارُ بأنها حق وصدق، وأنها كلام الله ﷻ، فيها الهدى والنور، والكفاية لمن أنزلت عليهم.

نؤمن بما سمى الله تعالى منها، وهي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى[1]، والقرآن العظيم المنزل على محمد ﷺ، كما نؤمن بما لم يسمّ منها؛ فإن لله تعالى كتباً لا يعلمها إلا هو سبحانه.

قال تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وإنزالُ الكتب من رحمة الله تعالى بعباده لحاجة البشرية إليها؛ لأن عقلَ الإنسان محدود، لا يُدرِكُ تفاصيلَ النفع والضرر، وإن كان يُدرِكُ الفرقَ بين الضارِّ والنافع إجمالاً.

---

(١) بعضُهم يقول : إن صحف موسى هي التوراة، وبعضُهم يقول : غيرها، فإن كانت هي التوراة : فهي خمسة، وإن كانت غيرها فهي ستة.

كما أن العقلَ الإنسانيَّ تغلبُ عليه الشهوات، وتلعبُ به الأغراضُ والأهواء، فلو وُكلت البشريةُ إلى عقولها القاصرة : لَضلّت وتاهَت، فاقتضَت حكمةُ الله ورحمتُه أن يُنزلَ هذه الكتبَ على المصطَفين من رسله؛ ليبينوا للناس ما تدل عليه هذه الكتبُ وما تتضمنه من أحكامه العادلة، ووصاياه النافعة، وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية.

قال تعالى حين أَهبَطَ آدمَ أبا البشريةِ ﷺ من الجنة : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35].

وقد انقسم الناسُ حيال الكتب السماويةِ إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم كذب بها كلها، وهم أعداء الرسل من الكفار والمشركين والفلاسفة.

٢ - وقسم آمنَ بها كلها، وهم المؤمنون الذين آمنوا بجميع الرسلِ وما أنزِل إليهم، كما قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285].

٣ - وقسم آمنَ ببعض الكتب وكفَرَ ببعضها، وهم اليهود والنصارى ومَن سارَ على نهجهم، الذين يقولون : ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 91]، بل هؤلاء يؤمنون ببعض كتابهم ويكفرون ببعضه، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

ولا شك أن الإيمانَ ببعض الكتاب أو ببعض الكتب، والكفرَ بالبعض الآخر: كفرٌ بالجميع؛ لأنه لا بد من الإيمان بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل؛ لأن الإيمان لا بد أن يكون مؤتلفاً جامعاً لا تفريقَ فيه ولا تبعيض ولا اختلاف، والله تعالى ذمَّ الذين تفرقوا واختلفوا في الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: 176].

وسببُ كفر مَن كفرَ بالكتب أو كفَرَ ببعضها أو ببعض الكتاب الواحد: هو اتباعُ الهوى والظنون الكاذبة، وزعمُهم أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي، ويسمون أنفسَهم بالحكماء والفلاسفة، ويسخرون من الرسلِ وأتباعِهم، ويصفونهم بالسفه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: 83].

وأما أتباعُ الرسل فإنهم يؤمنون بكل كتابٍ أنزلَه الله تعالى، لا يفرقون بينها.

والإيمانُ بالكتب السابقةِ إيمانٌ مجمل، يكون بالإقرارِ به بالقلب واللسان.

وأما الإيمانُ بالقرآن: فإنه إيمانٌ مفصَّل، يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، واتباعِ ما جاء فيه، وتحكيمِه في كل كبيرةٍ وصغيرة، والإيمان بأنه كلام الله تعالى منزَّل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود.

وقد اقتضت حكمةُ الله تعالى أن تكون الكتب السابقة لآجالٍ معيَّنةٍ ولأوقاتٍ محددة، ووكلَ حفظَها إلى الذين استُحفِظوا عليها من البشر، كما قال تعالى﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:44]، أما القرآنُ الكريم: فقد أنزله الله تعالى لكل الأجيالِ من الأمم في كل الأوطان إلى يوم القيامة، وتولى حفظَه بنفسه؛ لأن وظيفةَ هذا الكتاب لا تنتهي

إلا بنهاية حياة البشر على الأرض، قال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:9]،
قال تعالى:﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت42].

الباب الرابع

الإيمان بالرسل – عليهم السلام -

وفيه خمسةُ فصول :

الفصل الأول : معنى الإيمان بالرسل – عليهم السلام –.

الفصل الثاني : دلائل النبوة.

وفيه أربعةُ مباحث :

المبحث الأول:أوّل وأعظم دلائل النبوة، وهيالمعجزات، مع شيء من التفصيل في معجزة القرآنالكريم

المبحث الثاني : ذكر بقية دلائل النبوة.

المبحث الثالث : الفرقُ بين دلائل النبوة وخوارق السحرة والكهان.

المبحث الرابع : الفرق بين كرامات الأولياء وبين خوارق السحرة والمشعوذين.

الفصل الثالث : عصمة الأنبياء.

الفصل الرابع : دين الأنبياء واحد.

الفصل الخامس : خصائص الرسول ﷺ .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ما اختُصَّ به عن غيره من الأنبياء – عليهم السلام–

المبحث الثاني : الخصائص التي اختص بها دون أمته.

الفصل الأول

معنى الإيمان بالرسل – عليهم السلام -.

أولاً : كيفية الإيمان بالرسل – عليهم السلام – :

الإيمان بالرسل والأنبياء – عليهم السلام – عموماً أحد أركان الإيمان الستة؛ لأنهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقِه في تبليغ رسالاته وإقامةِ حجتِه على خلقه، فيجب الإيمانُ بهم جميعاً بكونهم صادقين في جميع ما أخبروا به عن الله تعالى، وأنه سبحانه بعثهم إلى عباده ليبلغوهم أمرَه ونهيَه، ووعدَه ووعيدَه، وأيدهم بالمعجزات الباهرات، والآيات البينات، فمن ثبت تعيينُه وجب الإيمانُ به تفصيلاً، ومن لم يثبت تعيينُه وجب الإيمانُ به إجمالاً.

وكما يجب الإيمانُ بجميع الأنبياء والرسل بذواتهم : يجب أيضاً الإيمانُ بأنهم أرسلهم الله تعالى لهداية خلقه، وتكميل معاشهم ومعادهم، وأنهم بلغوا رسالةَ ربهم، وبينوا للمكلفين ما أُمِروا ببيانه، وأنه يجب احترامُهم جميعهم، لا نفرق بين أحدٍ منهم في الإيمان بهم.

والأدلة على وجوب الإيمان بالرسل – عليهم السلام – كثيرةٌ، منها :

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: 177]، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 150-151].

ففي هذه الآيات الكريمات - وكثير غيرها - قرن الله تعالى الإيمانَ بالرسل بالإيمانِ به سبحانه وبملائكتِه وكتبِه، وحكَمَ بكفر مَن فرّقَ بين الله تعالى ورسُله؛ فآمَن ببعض وكفَرَ ببعض.

ثانياً : الفرق بين النبي والرسول :

ذكر بعضُ أهل العلم ثلاثة فروقٍ بين النبي والرسول، وهي :

١ - الرسولُ مَن بُعث إلى قوم كافرين، والنبيُّ مَن بُعِث إلى قومٍ مسلمين.

٢ - الرسولُ مَن جاء بشريعةٍ جديدة، والنبيُّ مَن جاء بشريعةِ مَن قبله من الرسل، كأنبياء بني إسرائيل.

٣ - الرسولُ مَن أنزِلَ عليه كتاب، والنبيُّ مَن حَكَم بكتاب مَن قبله من الرسل.

ثالثاً : تفاضل الرسل :

الرسلُ يتفاضلون، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 253].

وأفضلُ الرسل : أولو العزم من الرسل، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - عليهم السلام -، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:7]، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:13].

وأفضل أولي العزم : الخليلان إبراهيم ومحمد - عليهما وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام -، وأفضلُ الخليلَين : خاتمُهم محمدﷺ .

رابعاً : النبوةُ تفضُّلٌ واصطفاءٌ واختيار من الله تعالى :

النبوةُ تفضّلٌ واختيارٌ واصطفاءٌ من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 75].

وليست النبوةُ كسباً ينالُه العبدُ بالجدّ، والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادات، واقتحامِ أشَقِّ الطاعات، والدأبِ في تهذيب النفس وتنقيةِ الخاطرِ وتطهيرِ الأخلاق ورياضة النفس؛ كما يقول الفلاسفة : إنه يجوز اكتسابُ النبوة؛ حيث يزعمون أن مَن لازمَ المشاهدةَ بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة : فإنه تنصَقِلُ مرآةُ باطنه، وتفتح له بصيرةَ لبه، ويتهيأ له ما لا يتهيأ لغيره !

وهذا قولٌ باطل يرد عليه قولُ الله تعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75]، فالنبوةُ اصطفاءٌ من الله تعالى حسب حكمتِه وعلمِه بمن يصلحُ لها، وليست اكتساباً من قبل العبد.

ولا شك أن الأنبياء عليهم السلام اختصّوا بفضائل يمتازون بها عن غيرهم، ولكن ليست على النحو الذي يقولُه الفلاسفةُ الضُّلّال.

الفصل الثاني
دلائل النبوة

المبحث الأول

أول وأعظم دلائل النبوة وهي المعجزات، مع شيء من التفصيل في معجزة القرآن الكريم :

دلائل النبوة هي الأدلة التي تُعرفُ بها نبوةُ النبي الصادق، ويُعرف بها كذبُ المدّعي للنبوة من المتنبئين الكَذَبة.

ودلائل النبوة كثيرةٌ ومتنوعةٌ وغيرُ محصورةٍ، ومنها : المعجزة.

والمعجِزَةُ : اسم فاعل من العجز المقابِل للقدرة، ومعجِزةُ النبي : ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاءُ فيها للمبالغة، وهي : أمرٌ خارقٌ للعادة، يُجريه الله تعالى على يد مَن يختاره لنبوته؛ ليدل على صدقه وصحةِ رسالتِه.

ومعجزاتُ الرسل – عليهم السلام – كثيرة؛ منها : الناقةُ التي أوتِيَها صالح عليه السلام حجةً على قومه، وقلبُ العصا حيةً آيةً لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى آيةً لعيسى عليه السلام .

ومنها معجزاتُ نبينا محمد ﷺ ، وهي كثيرةٌ؛ منها: الإسراءُ والمعراج، وانشقاقُ القمر، وتسبيحُ الحصا في كَفِّه، وحنينُ الجذع إليه، وإخبارُه عن حوادث المستقبل والماضي، وغيرها من معجزاته – صلى الله عليه وعلى آله وسلم –.

وأعظمُ معجزاتِ نبينا ﷺ : القرآن الكريم؛ لأن كل نبي تكون معجزتُه مناسبة لحال قومه، ولذلك : لما كان السحرَ فاشياً في قوم فرعون : جاء موسى

عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقّفت ما صنعوا، فاحتاروا وانفجعوا، وعلموا أن ما جاء به موسى عليه السلام هو الحق وليس من السحر، كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: 46-48]، ولم يقع ذلك بعينه لغير موسى عليه السلام .

ولما كان الزمنُ الذي يعيش فيه عيسى عليه السلام قد فشَا فيه الطب : جاء المسيحُ بما حيَّرَ الأطباءَ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرصِ من الداء العضال القبيح، وخلَقَ من الطين كهيئة الطير، فنفخَ فيه فكان طيراً بإذن الله تعالى، فطاشَت عقولُ الأطباء، وأذعنوا أن ذلك من عند الله عز وجل .

ولما كانت العربُ أربابُ الفصاحة والبلاغة وفرسانُ الكلام والخطابة : جعلَ الله سبحانه معجزةَ نبينا صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، وهي المعجزةُ الباقيةُ الخالدةُ على مَرِّ العصور، والتي تحدّى الله تعالى بها الجنَّ والإنس.

وقد اختارَ الله تعالى هذه المعجزةَ الباهرةَ لخاتمة الرسالات السماوية العامة للناس أجمعين؛ فالقرآنُ الكريم معجزةٌ يطلع عليها الأجيالُ في كل زمانٍ ويتلونه، فيعلمون أنه كلامُ الله تعالى حقّاً، وليس كلام البشر، وقد تحدّى الله تعالى الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سورٍ مثلِه، أو بسورةٍ منه؛ فما استطاعَ أحدٌ منهم منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا وإلى الأبد أن يأتي أحدٌ بكتابٍ مثلِه، أو بمثل سورةٍ منه، على الرغم من وجود أعداء كثيرين للرسول صلى الله عليه وسلم ولدين الإسلام في عصور التاريخ.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24]، فالتحدِّي لا يزال قائماً إلى قيام الساعةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 33-34].

وهذا التحدِّي كان بمكة؛ فإن سورة يونس وهود والطور من المكي، ثم أعاد التحدِّي في المدينةِ بعد الهجرة، فقال في سورة البقرة – وهي مدنية -: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24]، فذكر أمرين:

أحدُهما: قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ يقول: إذا لم تفعلوا؛ فقد علمتم أنه حق، فخافوا الله أن تكذبوه، فيحيق بكم العذابُ الذي وعده المكذبين.

والثاني: قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾، ﴿لَن﴾ لنفي المستقبل، فثبتَ أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورةٍ من مثله، كما أخبرَ بذلك.

وأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول في سورة (سبحان) – وهي مكية – افتتحها بذكر الإسراء وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر -: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]؛ أمره أن يُخبر بالخبر جميعَ الخلق؛ معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا عليه وتعاونوا على ذلك، وهذا

التحدِّي لجميع الخلق، وقد سمعَه كلُّ مَن سمع القرآن، وعرفه الخاصُّ والعام، وعلمَ مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورةٍ من مثله.

ومن حين بعث النبيُّ ﷺ إلى اليوم والأمرُ على ذلك، مع ما عُلم من أن الخلقَ كانوا كلهم كفاراً قبل أن يُبعث، ولما بُعث إنما تبعه قليل، وكان الكفارُ من أحرص الناس على إبطال قوله، مجتهِدين بكل طريق ممكن؛ تارةً يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور الغيب حتى يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف وأهلِ الكهف وذي القرنين، ويجتمعون في مجمع بعد مجمع ليتفقوا على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال فيشبِّهونه بمن ليس بمثله مع ظهور الفرق؛ فتارةً يقولون : مجنون، وتارة : ساحر، وكاهن، وشاعر... إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون هم وغيرُهم من كل عاقل يسمعُها أنها افتراءٌ عليه.

فإذا كان قد تحدّاهم بالمعارضة مرةً بعد مرة، وهي تبطل دعواهم - فمعلومٌ أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها؛ فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرةُ حاصلة : وجب وجودُ المقدور، ثم هكذا القولُ في سائر أهل الأرض - : فهذا يوجبُ علماً مبيناً لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة، وهذا أبلغ من الآيات التي تكرر جنسُها؛ كإحياء الموتَى؛ فإن هذا لم يأت أحدٌ بنظيره.

فإقدامُه ﷺ في أول الأمر على هذا التحدي وهو بمكة وأتباعُه قليل على أن يقول خبراً يقطع به أنه لو اجتمع الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله في ذلك العصر وفي سائر الأعصار المتأخرة : لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقُّنِه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك مَن يخاف أن يظهرَ كذبُه

فينفضح فيرجع الناسُ عن تصديقه، وإذا كان جازماً بذلك متيقناً له : لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله تعالى له بذلك، وليس في العلوم المعتادة أن يَعلم الإنسانُ أن جميعَ الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا عَلِمَ العالم أنه خارجٌ عن قدرة البشر، والعلمُ بهذا يستلزمُ كونَه معجِزاً.

والقرآنُ الكريمُ معجِزةٌ من وجوه متعددة :

- من جهة اللفظ.
- ومن جهة النظم.
- ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى.
- ومن جهة معانيه التي أمرَ بها، ومعانيه التي أخبرَ بها عن الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وملائكتِه وغيرِ ذلك.
- ومن جهة معانيه التي أخبرَ بها عن الغيب المستقبل وعن الغيب الماضي.
- ومن جهة ما أخبرَ به عن المعاد.
- ومن جهة ما بيّنَ فيه من الدلائل اليقينية. وغيرها من الوجوه.

المبحث الثاني

ذكرُ بقية دلائل النبوة

دلائلُ النبوة ليست محصورةً في المعجزة كما يقوله جمهورُ المتكلمين، بل هي كثيرةٌ متنوعة؛ فمنها :

١ -إخبارُهم الأممَ بما سيكون من انتصارهم وخذلانِ أعدائهم وبقاءِ العاقبةِ لهم، فوقعَ كما أخبروا، ولم يتخلف منه شيء؛ كما حصل لنوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وموسى، ونبينا محمد – صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين – مما قصَّه الله تعالى علينا في كتابه.

٢ -ومنها : أن ما جاؤوا به من الشرائع والأخبار في غاية الإحكام والإتقانِ وكشفِ الحقائقِ وهدي الخلق، مما يُعلم بالضرورة أن مثلَه لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأبَرِّهم.

٣ -ومنها : أن طريقتَهم واحدةٌ فيما يأمرون به من عبادة الله والعملِ بطاعته والتصديقِ باليوم الآخرِ والإيمان بجميع الكتبِ والرسل، ولا يمكن خروجُ واحدٍ منهم عما اتفقوا عليه، فهم يُصدِّقُ متأخرُهم متقدِّمَهم، ويُبَشِّرُ متقدمُهم بمتأخرِهم؛ كما بشَّرَ المسيحُ ومَن قبله عليهم السلام بمحمد ﷺ ، وكما صدَّق محمدٌ ﷺ جميعَ النبيين قبله – عليهم السلام –.

٤ -ومنها : أن الله تعالى يؤيد الأنبياءَ عليهم السلام تأييداً مستمراً، وقد عُلم من سنتِه سبحانه وعادتِه أنه لا يؤيد الكاذبَ بمثل ما يؤيِّدُ به الصادق، بل يفضحُ الكاذبَ ولا ينصره، وقد يمهِلُه الله تعالى ثم يُهلِكُه. أما إذا نصرَ ملِكاً ظالِماً مسلَّطاً : فهو لم يدَّعِ النبوةَ ولم يكذب عليه، بل هو ظالم سلّطه تعالى الله على

ظالمٍ مثله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، بخلاف مَن قال : إن الله تعالى أرسلَه، وهو كاذب؛ فهذا لا يؤيده تأييداً مستمرّاً، لكن قد يُمهِلُه مدة ثم يُهلِكُه.

والتمييزُ بين الصادقِ والكاذبِ له طرقٌ كثيرةٌ فيما هو دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة ؟!

فمعلومٌ أن مدَّعي الرسالة : إما أن يكون من أفضل الخلقِ وأكملِه، وإما أن يكون من أنقص الخلق، ولهذا قال أحدُ أكابرِ ثقيف للنبي ﷺ – لما بلغهم ودعاهم إلى الإسلام – : «والله لا أقولُ لك كلمةً واحدة : إن كنتَ صادقاً؛ فأنتَ أجلُّ في عيني من أن أردَّ عليك، وإن كنتَ كاذباً؛ فأنتَ أحقرُ من أن أردَّ عليك »، فكيف يشتبه أفضلُ الخلق وأكملُهم بأنقص الخلقِ وأرذلِهم ؟!

وما من أحدٍ ادَّعى النبوةَ من الكذابين إلا وقد ظهَرَ عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذِ الشياطين عليه ما ظهَرَ به كذبُه لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوةَ من الصادقين إلا وقد ظهَرَ عليه من العلمِ والصدقِ والبرِّ وأنواعِ الخيراتِ ما ظهَر به صدقُه لمن له أدنى تمييز؛ فإن الرسولَ لا بد أن يُخبرَ الناسَ بأمور ويأمرَهم بأمور، ولا بد أن يفعل أموراً، والكاذبُ يظهرُ من نفس ما يأمرُ به ويُخبر عنه ويفعلُه ما يَظهَرُ به كذبُه من وجوه كثيرة.

المبحث الثالث

الفرقُ بين دلائل النبوة وخوارق السحرة والكهان

هناك فوارقُ كثيرةٌ بين دلائل النبوة وخوارقِ السحرةِ والكهان وكذلك عجائب المخترعات التي ظهرت اليوم؛ منها :

١ -أن أخبارَ الأنبياء لا يقع فيها تخلُّفٌ ولا غلط، بخلاف أخبار الكَهَنةِ والمنجمين؛ إذ الغالبُ عليها الكذب، وإن صدقوا أحياناً في بعض الأشياء بسبب ما يحصل عليه الكهان من استراق شياطينهم للسمع.

٢ -ومنها أن السحرَ والكهانةَ والاختراعَ أمورٌ معتادةٌ معروفةٌ ينالُها الإنسانُ بكسبه وتعلُّمِه؛ فهي لا تخرج عن كونها مقدورةً للجن والإنس، ويمكن معارضتُها بمثلها، بخلاف آيات الأنبياء؛ فإنها لا يَقدرُ عليها جنٌّ ولا إنس، كما قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]، فآياتُ الأنبياء لا يَقدرُ عليها الخلق، بل الله تعالى هو الذي يفعلُها آيةً وعلامةً على صدقهم؛ كانشقاق القمر، وقلبِ العصا حيةً، وتسبيحِ الحصا بصوتٍ يُسمع، وحنينِ الجذع، وتكثيرِ الماء والطعام القليل... فهذا لا يَقدرُ عليه إلا الله تعالى.

٣ -ومنها : أن الأنبياءَ مؤمنون مسلمون يعبدون الله تعالى وحده بما أمر، ويصدقون جميعَ ما جاءت به الأنبياء، وأما السحرةُ والكُهان والمتنبئون الكذبة : فلا يكونون إلا مشركين مكذبين ببعض ما أنزل الله تعالى.

٤ -ومنها : أن الفِطَرَ والعقولَ توافقُ ما جاء به الأنبياءُ عليهم السلام ، وأما السحرةُ والكهان والدجالون الكذابون : فإنهم يُخالفون الأدلةَ السمعيةَ والعقليةَ والفطرية.

٥ -ومنها : أن الأنبياءَ جاؤوا بما يُكَمِّلُ الفِطَرَ والعقول، والسحرةُ والكهانُ والكَذَبَةُ يجيئون بما يُفسِدُ العقولَ والفِطَر.

٦ -ومنها: أن معجِزاتِ الأنبياء لا تحصلُ بأفعالهم هم، وإنما يَفعلُها الله عز وجل آيةً وعلامةً لهم؛ كانشقاقِ القمر، وقلبِ العصا حيةً، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب الذي يختص الله تعالى به ... فأمرُ الآيات إلى الله تعالى لا إلى اختيار المخلوق، كما قال الله لنبيِّه عندما طلبوا منه أن يأتي بآية : ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: 50]، وأما خوارقُ السحرة والكهان والمخترعات الصناعية : فإنها تحصلُ بأفعال الخلق.

المبحث الوابع

الفرق بين كرامات الأولياء وبين خوارق السحرة والمشعوذين

هناك ارتباط وثيق بين كرامات الأولياء وآياتِ الأنبياء، ولذلك سأتطرق هنا إلى الحديث عن كرامات الأولياء، وكذلك إلى بيان الفرق بينها وبين خوارق السحرة والمشعوذين.

أولاً : كرامات الأولياء :

أولياءُ الله تعالى هم المؤمنون المتقون، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63]، فكلُّ مؤمنٍ تقي هو من أولياء الله ﷻ بقدر إيمانه وتقواه، وقد يُظهرُ الله على يديه شيئاً من خوارق العادات، وهي التي تسمى بالكرامات.

فالكرامةُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ يُجريه الله تعالى على يد بعض الصالحين من أتباع الرسلِ عليهم السلام إكراماً من الله تعالى له، ببركة اتباعه للرسل – عليهم السلام –.

وليس كلُّ ولي تحصلُ له كرامة، وإنما تحصل لبعضهم؛ إما لتقوية إيمانه، أو لحاجتِه، أو لإقامةِ حجةٍ على خصمه المعارضِ في الحق.

والأولياءُ الذين لم تظهر لهم كرامة لا يدل ذلك على نقصهم، كما أن الذين وقعت لهم الكرامةُ لا يدل ذلك على أنهم أفضلُ من غيرهم.

وكراماتُ الأولياء حقٌّ بإجماع أئمة الإسلام والسنةِ والجماعة، وقد دلَّ عليها القرآنُ الكريمُ والسنةُ الصحيحة، وإنما ينكرُها أهلُ البدع من الجهميةِ والمعتزلةِ ومَن تابعَهم، وهذا إنكارٌ لما هو ثابتٌ في القرآن والسنة، ففي القرآنِ الكريم : قصةُ

أصحاب الكهف، وقصةُ مريم، وفي السنة الصحيحة : حديثُ نزول الملائكةِ كهيئة الظلةِ فيها أمثالُ السرج لاستماع قراءة أسيد بن حضير ﷺ ، وحديثُ سلام الملائكةِ على عمران بن حصين ﷺ ، ولها أمثلة كثيرة.

وقد حصل في موضوع كرامات الأولياء التباسٌ وخلطٌ عظيمٌ بين الناس :

فطائفةٌ أنكروا وقوعَها ونفوها بالكلية، وهم الجهميةُ والمعتزلةُ ومَن تبعهم، فخالفوا النصوصَ وكابروا الواقع.

وطائفةٌ غَلَت في إثباتها، وهم العوامُّ وعلماءُ الضلال، فأثبتوا كراماتٍ للفجَرَةِ والفساق ومَن ليسوا من أولياء الله ﷻ بل من أولياء الشيطان، واعتمدوا في إثبات ذلك على الحكايات المكذوبةِ والمناماتِ والخوارق الشيطانية، فادّعوا الكراماتِ للسَّحَرَةِ والمشعوذين والدجالين، حتى عبدوهم من دون الله تعالى أحياءً وأمواتاً، وبنوا الأضرحةَ على قبور مَن يزعمون لهم الولايةَ ممن حيكَت لهم الدعايات العريضة، ونُسِبَ إليهم التصرفُ في الكون وقضاءُ حوائج مَن دعاهم وطلبَ منهم المددَ واستغاثَ بهم، وسموهم الأقطابَ والأغواثَ بسبب تلك الكرامات المزعومة والحكايات المكذوبة.

فقد اتخذت دعوى الكرامات ذريعة لعبادة مَن نُسِبَت إليه، وربما سموا الشعوذةَ والتدجيلَ والسحرَ كرامة؛ لأنهم لا يفرقون بين الكرامة والأحوال الشيطانية، ولا يُفرقون بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وإلا؛ فمن المعلوم أنه حتى مَن ثبتَ أنه ولي الله تعالى بنصٍّ من القرآن أو السنة، وإن جرى على يده كرامةٌ من الله تعالى : فإنه لا يجوز أن يُعبد من دون الله تعالى، ولا أن يتبرك به أو بقبره؛ لأن العبادةَ حق لله تعالى وحده.

ثانياً: الفرق بين كرامات الأولياء وبين خوارق السحرَةِ والمشعوذين والدجالين:

هناك فروق بين كرامات الأولياء وبين خوارق السحرة والمشعوذين؛ منها:

١ -أن كرامات الأولياء سببُها التقوى والعملُ الصالح، وأعمالُ المشعوذين سببُها الكفرُ والفسوقُ والفجور.

٢ -ومنها : أن كراماتِ الأولياء يُستَعانُ بها على البر والتقوى، أو على أمورٍ مباحة، وأعمالُ المشعوذين والدجالين يُستَعانُ بها على أمورٍ محرَّمةٍ؛ من الشرك، والكفر، وقتل النفوس.

٣ -ومنها: أن كراماتِ الأولياء تقوى بذكر الله تعالى وتوحيده، وخوارقُ السحرة والمشعوذين تبطُل أو تضعُفُ عند ذكر الله تعالى وقراءةِ القرآن والتوحيد.

فتبين بهذا أن بين كرامات الأولياء وتهريجاتِ المشعوِذين والدجالين فروقاً تميّز الحقَّ من الباطل.

وأولياءُ الله تعالى حقّاً لا يستغلون ما يُجريه الله تعالى على أيديهم من الكراماتِ للنصب والاحتيال ولفت أنظار الناس إلى تعظيمهم، وإنما تزيدُهم تواضعاً ومحبةً لله تعالى وإقبالاً على عبادته، بخلاف المشعوذين الدجالين؛ فإنهم يستغلون هذه الأحوال الشيطانيةَ التي تجري على أيديهم لجلب الناس إلى تعظيمهم والتقرُّبِ إليهم وعبادتِهم من دون الله ﷻ .

وخلاصة موضوع كرامات الأولياء : أن الناسَ انقسموا فيه إلى ثلاثة أقسام:

- قسم غلوا في نفي كرامات الأولياء حتى أنكروا ما هو ثابتٌ في الكتاب والسنةِ من الكرامات الصحيحةِ التي تجري على وفق الحق لأولياء الله تعالى المتقين.

- وقسم غلوا في إثبات الكرامات حتى اعتقدوا أن السحرَ والشعوذةَ والدجلَ من الكرامات، واستغلوها وسيلةً للشرك والتعلقِ بأصحابها من الأحياء والأموات، حتى نشأ عـن ذلك الشركُ الأكبرُ بعبـادة القبورِ وتقديسِ الأشخاص والغلوِّ فيهم؛ لِـمَا يزعمون فيهم من الكرامات.
- والقسم الثالث :وهم أهلُ السنة والجماعة؛ توسطوا في موضوع الكراماتِ بين الإفراط والتفريط، فأثبتوا منها ما أثبتَه الكتابُ والسنة، ولم يغلوا في أصحابها، ولم يتعلقوا بهم من دون الله تعالى، ولا يعتقدون فيهم أنهم أفضلُ من غيرهم، بل هناك من أولياء الله تعالى مَن هو أفضلُ منهم ولم تَجرِ على يديه كرامة، ونفوا ما خالفَ الكتابَ والسنةَ من الدجل والشعوذةِ والنصب والاحتيال، واعتقدوا أنه من عمل الشيطان، وليس هو من كرامات الأولياء، وهذا واضحٌ بحمد الله تعالى.

الفصل الثالث

عصمة الأنبياء – عليهم السلام -

العصمة : المنعة، والعاصم : المانع الحامي، والاعتصام : الامتساك بالشيء، والمراد بالعصمة هنا : حفظ الله تعالى لأنبيائه من الذنوب والمعاصي.

عصمة الأنبياء – عليهم السلام – منها ما هو مجمعٌ عليه بدايةً ونهايةً، ومنها ما هو مختلفٌ فيه بدايةً لا نهاية، وبيان ذلك :

أجمعوا على عصمة الأنبياء فيما يُخبرون عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته؛ لأن هذه العصمة هي التي يحصل بها مقصودُ الرسالة والنبوة، ولذلك يجب الإيمانُ بكل ما أوتوه، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: 136–137].

أما المعاصي : فقد اختلفوا في عصمة الأنبياء منها على قولين مشهورين :

القول الأول : أن الأنبياء معصومون عن المعاصي مطلقاً كبائرها وصغائرها؛ لأن منصب النبوة يجل عن مواقعتها ومخالفةِ الله تعالى عمداً، ولأننا أُمِرنا بالتأسي بهم، وذلك لا يجوز مع وقوع المعصيةِ في أفعالهم؛ لأن الأمرَ بالاقتداءِ بهم يلزم منه أن تكون أفعالُهم كلها طاعة.

وأصحابُ هذا القول تأولوا الآيات والأحاديث الواردةِ بإثبات شيءٍ من ذلك.

القول الثاني : إن الأنبياءَ – عليهم السلام – معصومون من الكبائر وليسوا معصومين من الصغائر، واستدلوا بما ورد في القرآن والأخبار، لكنهم لا يصرون عليها، فيتوبون منها ويرجعون عنها، فالعصمةُ من الإقرار على الذنوبِ مطلقاً.

وهذا القولُ هو قول الجمهور، وهو الذي تؤيده الأدلة من الكتاب والسنة.

«وفي الكتابِ والسنةِ الصحيحةِ والكتبِ التي أنزِلت قبل القرآن مما يوافقُ هذا القولَ ما يتعذر إحصاؤه، والرادّون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدريةِ والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوصِ القدَر ونصوص المعاد، وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يُعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكَلِم عن مواضعه، وهؤلاء يقصدُ أحدُهم تعظيمَ الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمانَ بهم فيقع في الكفرِ بهم...»[1].

---

(١) (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) (2/ 373).

الفصل الرابع

دين الأنبياء واحد

إن دين الأنبياء عليهم السلام دين واحدٌ وإن تنوعت شرائعُهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: 13]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 51-52].

وقال النبيُّ ﷺ: «الأنبياءُ إخوةٌ لِعلات، أمهاتُهم شتى ودينُهم واحد»[1].

ودينُ الأنبياء هو دينُ الإسلام الذي لا يَقبل الله غيرَه، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهلِه:

قال تعالى عن نوح: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: 91].

وقال تعالى عن إبراهيم ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:131].

وقال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

وقال تعالى عن المسيح: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: 111].

وقال تعالى فيمَن تقدم من الأنبياء وعن التوراة: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: 44].

وقال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّى ظَلَمۡتُ نَفۡسِى وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (ح/ 3443)، ومسلم (ح/ 2365).

ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 44].

فالإسلامُ هو دينُ الأنبياء جميعاً، وهو الاستسلامُ لله وحده، فمن استسلمَ له ولغيره كان مشركاً، ومَن لم يستسلم له : كان مستكبراً، وكلٌّ من المشرك والمستكبِرِ عن عبادة الله : كافر.

والاستسلامُ لله يتضمن عبادتَه وحده، وأن يُطاع وحده، وذلك بأن يُطاع في كل وقتٍ بفعل ما أُمِرَ به في ذلك الوقت؛ فإذا أُمِرَ في أول الإسلام بأن يستقبل بيتَ المقدس، ثم أُمِرَ بعد ذلك باستقبال الكعبة : كان كلٌّ من الفعلين حين أُمِرَ به داخلاً في الإسلام؛ فالدين هو الطاعة، وكلٌّ من الفعلين عبادة لله تعالى، وإنما تنوع بعضُ صور الفعل، وهو توجُّه المصلي؛ فكذلك الرسلُ دينُهم واحد وإن تنوعت الشرعةُ والمنهاج والوجه والمنسك؛ فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدينُ واحداً، كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد.

فدينُ الأنبياء واحدٌ وإن تنوعت شرائعُهم؛ فقد يشرعُ الله في وقتٍ أمراً لحكمة، ثم يشرع في وقتٍ آخر أمراً لحكمة، فالعملُ المنسوخُ قبل نسخه طاعةٌ لله تعالى، وبعد النسخ يجب العملُ بالناسخ، فمَن تمسك بالمنسوخ وتركَ الناسخ : فليس هو على دين الإسلام، ولا هو متبعٌ لأحدٍ من الأنبياء، ولهذا كفر اليهودُ والنصارى؛ لأنهم تمسكوا بشرع مبدلٍ منسوخ.

والله تعالى يشرع لكل أمةٍ ما يناسبُ حالَهَا ووقتَها، ويكون كفيلاً بإصلاحها، متضمناً لمصالحها، ثم ينسخ الله تعالى ما يشاءُ من تلك الشرائع لانتهاءِ أجلها، إلى أن بعثَ نبيَّه محمداً خاتمَ النبيين إلى جميع الناسِ على وجه الأرض، وعلى امتداد

الزمَن إلى يوم القيامة، وشرعَ له شريعةً شاملةً لكل زمانٍ ومكان، لا تبدل ولا تنسخ، فلا يسع جميعَ أهل الأرض إلا اتباعه والإيمان به ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

والآياتُ التي أنزلها الله سبحانه على رسوله محمد ﷺ فيها خطابٌ لجميع الخلق: الجن والإنس وعلى اختلاف أجناسهم، ولم يخص العربَ بحكمٍ من الأحكام، بل علّق الأحكامَ باسم : كافر ومؤمن، ومسلم ومنافق، وبرّ وفاجر، ومحسن وظالم... وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث، فليس في القرآن والحديث تخصيصُ العرب بحكم من الأحكام الشرعية، وإنما علّق الأحكامَ بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله وفيما يبغضه الله.

ونزولُ القرآن بلسان العرب إنما هو لأجل التبليغ؛ لأنه بلّغَ قومَه أولاً، ثم بواسطتهم بلّغَ سائرَ الأمم، وأمره الله بتبليغ قومه أولاً، ثم تبليغ الأقرب فالأقرب، كما أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، وليس هذا تخصيصاً، وإنما هو تدرجٌ بالتبليغ.

فدينُ الأنبياء واحد، وهو إخلاصُ العبادة لله، والنهي عن الشرك والفساد، وإن تنوعت شرائعُهم حسب الظروف والحاجات، إلى أن ختموا بمحمد ﷺ الذي عمّت رسالتُه الخلق، وامتدت إلى آخر الدنيا، لا تبدل ولا تغير ولا تنسخ، وهي صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان، ولا نبي بعده ﷺ إلى آخر الزمان.

الفصل الخامس

خصائص الرسول ﷺ :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ما اختُصَّ به عن غيره من الأنبياء عليهم السلام .

للنبي ﷺ خصائص اختصَّ بها عن غيره من الأنبياء – عليهم السلام –، وخصائص اختص بها عن أمته.

والخصائص التي اختُصَّ بها عن غيره من الأنبياء – عليهم السلام – كثيرة؛ منها :

1 – أنه خاتَم النبيين: قال تعالى﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:40]، وقال ﷺ : «أنا خاتَمُ النبيين»[١]، وقال ﷺ : «وإنه لا نبيَّ بعدي»[٢].

وهذا مجمعٌ عليه بين أمة الإسلام، فمَن ادّعى النبوةَ بعده ﷺ فهو كذّابٌ ليس من الإسلام في شيء، وهذا من بدَهيات دين الإسلام.

وكونُه ﷺ خاتَم النبيين يعني أن الوحيَ قد انقطعَ من السماء، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال : «قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر : انطَلِقْ بنا إلى أمِّ أيمنَ نزورُها كما كان رسولُ الله ﷺ يزورُها، فلَمَّا انتَهيَا إليها بكَت، فقالا لها : ما يُبكيكِ ؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أخرجه البخاري (ح/ 3535)، ومسلم (ح/ 2286).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أخرجه البخاري (ح/ 3455)، ومسلم (ح/ 1842).

فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلمُ أنّ ما عند الله خيرٌ لرسولهﷺ ولكن أبكي أنّ الوحيَ قد انقطعَ من السماء، فهَيَّجَتْهما على البكاءِ فجعلا يبكيان معها»(١).

فمَن اعتقد أن الله تعالى يوحي بعد موت محمدﷺ إلى أحدٍ – كائناً مَن كان – : فقد كذّبَ الكتابَ والسنةَ والإجماع.

2- المقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى، كما في قوله تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 79]، وكما في حديث الشفاعة الطويل المتفق على صحته : أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيقول بعضُ الناس لبعض : ألا ترون إلى ما أنتم فيه، ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيأتون إلى آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم إلى محمدصلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين– فكلهم يقول : اذهبوا إلى غيري، إلا محمداًﷺ فإنه يقول: أنا لها، فيَخِرُّ ساجداً إلى أن يؤذن له بالشفاعة (٢). وبهذا يظهرُ فضلُه على جميع الخلق، واختصاصُه بهذا المقام.

3- عمومُ بعثته إلى الثقلين الجن والإنس، قال تعالى﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:29]، وهذا مجمع عليه.

---

(١) رواه مسلم (ح/ 2454).

(٢) حديث الشفاعة متفق عليه من حديث أنس ﷺ، أخرجه البخاري (ح/ 7510)، ومسلم (ح/ 193).

والآياتُ التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ فيها خطابٌ لجميع الخلق الجن والإنس؛ إذ كانت رسالتُه عامةً للثقلين، وإن كان من أسباب النزول ما كان موجوداً في العرب، فليس شيءٌ من الآيات مختصاً بالسبب المعين الذي نزل فيه باتفاق المسلمين، فلم يقل أحدٌ من المسلمين : إن آيات الطلاق أو الظهار أو اللعان أو حدّ السرقة والمحاربين وغير ذلك : يختص بالشخص المعين الذي كان سبب نزول الآية.

وكما كان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس : فهو مبعوثٌ أيضاً إلى الجن، فقد استمعَ الجنُّ لقراءته، وولّوا إلى قومهم منذرين، كما أخبر الله ﷻ ، وهذا متفق عليه بين المسلمين، وقد ذكر الله تعالى في القرآن من خطاب الثقلين ما يبين هذا الأصل، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الأنعام: 130]، وقد أخبر الله تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ [الجن: 11]، أي: مذاهب شتى: مسلمون وكفار، وأهل سنة وأهل بدعة، وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الآية [الجن: 14]، والقاسط: الجائر، يُقال : قسط، إذا جار، وأقسط: إذا عدل.

4- ومن خصائصه ﷺ : القرآن العظيم، الذي أذعنَ لإعجازه الثقلان، وأحجمَ عن معارضته بلغاءُ الإنس والجان، واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورةٍ من مثله أهلُ الفصاحة والبلاغةِ من سائر الأديان، كما سبق تفصيل ذلك.

5- ومن خصائصه ﷺ : المعراج إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمعَ فيه صريفَ الأقلام، فكان قابَ قوسين أو أدنى.

المبحث الثاني

الخصائص التي اختص بها دون أمته

خص الله تعالى رسولَهﷺ من أحكام الشريعةِ بمعانٍ لم يشاركه فيها أحدٌ في باب الفرض والتحريم والتحليل؛ مزيةً على الأمة، وهبةً له، ومرتبة خص بها؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أشياء لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم، منها متفق عليه، ومنها مختلف فيه، ومن هذه الخصائص :

- التهجد بالليل، يُقال : إن قيام الليل كان واجباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: 1]، والمنصوصُ أنه كان واجباً عليه، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: 79].
- أنه إذا عَمِلَ عملاً أثبتَه.
- تحريم الزكاة عليه وعلى آله.
- أنه أُحِلَّ له الوصال في الصيام.
- أنه أُحِلَّ له الزيادة على أربع نسوة.
- أنه أُحِلَّ له القتال بمكة.
- أنه لا يورث.
- بقاءُ زوجيَّتِه بعد الموت، وإذا طلق امرأةً : تبقى حرمتُه عليها فلا تُنكَح.

إلى غير ذلك من الخصائص النبوية عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الباب الخامس

في الإيمان باليوم الآخر :

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإيمان باليوم الآخر.

الفصل الثاني : الإيمان بأشراط الساعة.

الفصل الثالث : القيامة الكبرى والقيامة الصغرى.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : القيامة الصغرى.

المطلب الثاني : القيامة الكبرى.

الفصل الأول

الإيمان باليوم الآخر

المراد باليوم الآخر هنا هو يوم القيامة، ويدخل فيه كل ما كان مقدمة إليه، كالحياة البرزخية، وأشراط الساعة.

فمبتدأُه من الموت، ومنتهاه إلى آخر ما يقع يوم القيامة، أي : إلى ما لا نهاية له، وعليه فمدة البرزخ من يوم القيامة، وهذا هو المشهور عند العلماء.

والإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، والذي لا يصح إيمانُ العبد إلا به، كما في حديث جبريل عليه السلام – وقد تقدمت الإشارة إليه – وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة:29]، والآيات في ذلك كثيرة جداً.

ويكون الإيمانُ باليوم الآخر : بالإيمان بأنه كائن لا محالة، والتصديق بكل ما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وبالبعث بعد ذلك، والحساب، والميزان، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وبكل ما وصف الله تعالى به يوم القيامة.

واليوم الآخر قد أخبر الله تعالى عنه في كتابه العزيز، وأقام عليه أدلةً كثيرة، وردَّ على المنكرين له في غالب سور القرآن الكريم.

وقد تنوعت أدلةُ البعث في القرآن الكريم :

- فتارةً يُخبر عمن أماتهم ثم أحياهم في الدنيا، كما أخبر عن قوم موسى الذين قالوا : ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: 55]، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: 55-56].

وأخبر عن ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 143]، وعن إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ

ٱلۡمَوۡتَىٰ...﴾ [البقرة: 260] **القصة، وكما أخبر عن المسيح عليه السلام أنه كان يحيي الموتى بإذن الله تعالى، وعن أصحاب الكهف أنهم بُعثوا بعد ثلاث مئة سنةٍ وتسعِ سنين.**

- **وتارةً يستدل على ذلك بالنشأة الأولى؛ فإن الإعادةَ أهونُ من الابتداء، كما في قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ...﴾ **الآية** [الحج: 5]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]، **وقوله تعالى:** ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الإسراء: 51]، **وقوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: 27].

- **وتارةً يستدل على ذلك بخلق السماوات والأرض؛ فإن خلقَهما أعظمُ من إعادة الإنسان، كما في قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: 33].

- **وتارةً يستدل سبحانه وتعالى على البعث بتنزيه نفسه المقدسة عن العبث، كما قال تعالى:** ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: 36-40].

فالناسُ في هذه الدنيا منهم المحسن، ومنهم المسيء، وقد يموتون ولا ينال أحدُهم جزاءَ عمله؛ فلا بد من دار أخرى يُقام فيها العدلُ بين الناس، وينالُ كلٌّ منهم جزاءَ عمله.

الفصل الثاني

الإيمان بأشراط الساعة

أشراط الساعة هي علاماتُها التي تدل على اقترابها ومجيئها.

وهي تنقسم إلى قسمين :

1- أشراط صغرى : وهي التي تتقدّم الساعةَ بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، ونحوها، وقد يظهر بعضُها مصاحباً للأشراط الكبرى، أو بعدها.

2- أشراط كبرى : وهي الأمورُ العظام التي تظهرُ قربَ قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع؛ كظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

وقسّم بعضُ العلماء أشراطَ الساعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام :

١ -قسمٌ ظهرَ وانقضى.

٢ -وقسمٌ ظهرَ ولا يزال يتتابعُ ويكثر.

٣ -وقسم لم يظهر حتى الآن.

فأما القسمان الأولان : فهما من أشراط الساعة الصغرى، وأما القسمُ الثالث: فيشتركُ فيه الأشراط الكبرى وبعض الأشراط الصغرى.

أما القسم الأول – وهو الذي ظهر وانقضى – : فمن هذه الأمارات : بعثة النبي ﷺ ، وموتُه ﷺ ، وفتحُ بيت المقدس. ومنها : قتلُ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومنها : ذكر الحروب التي وقعت بين المسلمين بعد قتل عثمان رضي الله عنه .

وأما القسم الثاني، وهو الأمارات المتوسطة، وهي التي ظهرت ولم تنقض، بل تتزايد وتكثر : فهي كثيرةٌ جداً، منها :

قولُه ﷺ : «لا تقوم الساعةُ حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لُكَع ابن لكع »[1]، واللكع : العبدُ والأحمق واللئيم.

- ومنها : قولُه ﷺ : «يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابضِ على الجمر»[2].
- ومنها قولُه ﷺ : «إن من أشراط الساعة أن يُرفعَ العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى، ويكثر شربُ الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساءُ حتى يكون لخمسين امرأةً القيِّمُ الواحد»[3].
- ومنها قولُه ﷺ للسائلِ عن الساعة : «إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظر الساعة»، قال – أي : السائل – : كيف إضاعتُها ؟ قال ﷺ : «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله : فانتظر الساعة»[4].

أما القسم الثالث من أمارات الساعة : فهي العلامات العظام والأشراط الجسام التي تعقبها الساعة، وأولُها : ظهورُ المهدي، ثم خروج الدجال، ثم نزول المسيح عليه السلام، ثم تتتابع.

---

(١) رواه الإمام أحمد (5/ 389)، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي (ح/ 2186) عن أنس رضي الله عنه، وهو صحيح.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 5231)، ومسلم (ح/ 2671).

(٤) رواه البخاري (ح/ 59، 6496) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه العلامات جاء ذكرُها في النصوص، ومنها : حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال : اطلع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال : «ما تذاكرون ؟ »، قالوا : نذكر الساعة، قال : «إنها لن تقوم حتى ترون قبلَها عشرَ آيات »، فذكر : الدخان، والدجال، والدابة، وطلوعَ الشمسِ من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطردُ الناسَ إلى محشرهم»[1].

وسأذكر هنا بعضَ هذه العلامات الواردة في هذا الحديث وفي أحاديث أخرى بإيجاز :

1- ظهور المهدي[2] :

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ : «لا تنقضي الأيام ولا يذهبُ الدهرُ حتى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي، يواطئ اسمُه اسمي»[3].

وقد تواترت الأحاديثُ واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي، وأنه من أهل بيته ﷺ ، وأنه يملك سبعَ سنين، وأنه يملأ الأرضَ عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويكون ظهورُه من بلاد المشرق، ويُبايَع له عند الكعبة، وينزلُ

---

(١) رواه مسلم (ح/ 2901).

(٢) تحدثت عن المهديِّ قبل العلامات العشر التي وردَ ذكرُها في حديث حذيفة ﷺ لأن ظهورَه يكون سابقاً لها، فهو الذي يجتمعُ عليه المؤمنون لقتال الدجال، ثم يَنزِلُ عيسى بنُ مريم – عليه السلام – ويصلي خلفه، كما سيأتي.

(٣) رواه أحمد (5/ 199ح/ 3573) – تحقيق الشيخ أحمد شاكر، وقال : إسناده صحيح، ورواه الترمذي (ح/ 2345) وقال : هذا حديث حسن صحيح.

عيسى ابنُ مريم وأميرُ المسلمين هو المهدي، فيقول لعيسى ﷺ : تعال صلِّ بنا، فيقول : لا؛ إن بعضَهم أميرُ بعض.

وقد انقسم الناسُ في أمر المهدي إلى طرفين ووسط :

فالطرف الأول : مَن ينكر خروجَ المهدي، مثل بعض الكتّاب المعاصرين الذين ليس لهم خبرة بالنصوص وأقوال أهل العلم، وأحاديثه قد بلغت حدَّ التواتر المعنوي بشهادة كثيرة من أهل العلم[١].

والطرف الثاني : مَن يُغالي في أمر المهدي من الطوائف الضالة، حتى ادعَت كلُّ طائفةٍ لزعيمهم أنه المهدي المنتظر.

وأما الوسط : فهم أهل السنة والجماعة، الذين يُثبتون خروجَ المهدي على ما وردت به النصوصُ الصحيحةُ في اسمه، واسم أبيه، وصفاتِه، ووقتِ خروجه.

2- خروج الدجال :

تواترت الأحاديثُ من وجوه متعددة في إثبات خروج الدجالِ وبيانِ فتنتِه والاستعاذة منه، وأجمع أهلُ السنة على خروجه في آخر الزمان، وفتنةُ الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدمَ ﷺ إلى قيام الساعة، وذلك بسبب ما يخلق الله تعالى معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتُحيِّر الألباب.

ولذلك فإن المسيحَ الدجال قد أنذرت به الأنبياءُ ﷺ أقوامَها، وحذّر منه نبيُّنا ﷺ أكثر، وبين أوصافَه لأمته، وخلاصةُ ما وردت فيه من الأحاديث : أنه

---

(١) مما أُلِّف في المهدي : رسالة (الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل) للباحث عبد العليم عبد العظيم، وهي رسالة الماجستير، و(عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر) للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر.

يؤذنُ له في الخروج في آخر الزمان، فيخرج من جهة المشرقِ من خراسان، من يهودية أصبهان، يظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة، ثم يدعي النبوة، ثم يدّعي الربوبية، فيتبعُه على ذلك الجهلةُ من بني آدم، ويُخالفُه ويرد عليه مَن هداه الله تعالى من الصالحين، ويتدنى فيأخذ البلادَ بلداً بلداً، ولا يبقى من البلدان إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة.

وقد خلقَ الله تعالى على يديه خوارقَ كثيرةً يضل بها مَن يشاءُ من خلقه، ويَثبتُ معها المؤمنون فيزدادون إيماناً مع إيمانهم، وهدى إلى هداهم.

ويكون نزولُ عيسى بن مريم عليه السلام مسيحِ الهدى في أيام مسيح الضلالة، فيجتمعُ عليه المؤمنون، فيسير بهم المسيحُ عيسى بنُ مريم عليه السلام قاصداً نحو الدجالِ وقد توجّه نحو بيت المقدس، فينهزمُ منه الدجال، فيلحقه عند باب مدينة (لدّ)، فيقتله بحربتِه وهو داخلٌ إليها، ويقول له : إن لي فيك ضربة لن تفوتني، وإذا واجهه الدجال : فإنه يذوبُ كما ينحلُّ الملحُ في الماء، ويكون وفاتُه هناك لعنه الله تعالى.

«ومن فتنته أيضاً : أن يقول للأعرابي : أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمَّك؛ أتشهد أني ربُّك ؟ فيقول : نعم، فيتمثَّلُ له شيطانان في صورة أبيه وأمِّه، فيقولان: يا بني، اتْبَعْه؛ فإنه ربُّك»[1].

وسيكون أكثرُ أتباعه الأعراب لغلبة الجهل عليهم، وأما النساء : فحالهُن أشد من الأعراب؛ لسرعة تأثرهن وغلبة الجهل عليهن، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبيُّ ﷺ : «ينزل الدجالُ في هذه السبخةِ بمرقناة، فيكون أكثرُ مَن يخرج إليه

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (2/ 1359-1363)، والحديث صحيح.

النساء، حتى إن الرجلَ يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنتِه وأختِه وعمَّتِه فيوثقُها رباطاً؛ مخافةَ أن تخرج إليه»[١].

ومن الأحاديث الواردةِ فيه : حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ : عن النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلم : قال : «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إلا أَنْذَرَ قَوْمَه الْأَعْوَرَ الْكَذَّاب، إِنَّهُ أَعْوَر - وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَر - مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِر»[٢].

زاد في رواية حذيفة ﷺ : «مكتوبٌ بين عينيه (كافر)، يقرؤه كلُّ مؤمن، كاتبٍ وغير كاتب»[٣].

وكذلك حديثُ النوّاس بن سمعان ﷺ قال :

ذَكَرَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ[٤] حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْل، فَقَالَ ﷺ : «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِه، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِم، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ[٥] كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَن، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ

---

(١) رواه أحمد (7/ 190ح/ 5353) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، وقال : إسنادُه صحيح.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 7131)، ومسلم (ح/ 2933).

(٣) رواه مسلم (ح/ 2934).

(٤) أي : أكثرَ من الكلام فيه، فتارةً يرفع صوتَه ليُسمِعَ مَن بَعُد، وتارةً يخفضُ ليستريح من تعب الإعلان، وهذه حالةُ المُكثِرِ من الكلام.

(٥) القطَط : الشديد الجعودة، ومعنى (عينه طافئة) : اسم فاعل من طُفِئت النارُ تُطفأ فهي طافئة، أي: ذهبَ نورُها.

فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْف ...

قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله، وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْض ؟ قَالَ ﷺ : «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ». قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ ﷺ : «لا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْره».

قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْض ؟ قَالَ ﷺ : «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَه، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِت، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا[1]، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَه ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ[2] لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِم ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَك فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْل، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ[3]، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَك

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ... فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ[4] فَيَقْتُلُه، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللهُ مِنْه ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّة »[5].

---

(١) تروح : ترجع آخرَ النهار. والسارحة : الماشيةُ التي تسرح، أي : تذهب أول النهار إلى المرعى. والذرا : الأعالي.

(٢) من المَحْل، وهو القحطُ والجدب. ويعاسيبُ النحل : فحولُها، واحدُها يعسوب.

(٣) الجزلةُ – بفتح الجيم على المشهور، وحكى ابنُ دريد كسرَها – : القطعة، أي : يقطعُه قطعتَين. و رميةَ الغرض: منصوبٌ نصبَ المصدر، أي : كرمية الغرضِ في السرعة والإصابة.

(٤) اللُّدُّ بلدةٌ قرب بيت المقدس في فلسطين.

(٥) رواه مسلم (ح/ 2937).

وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أمتَه بالاستعاذةِ من فتنته في آخر كل صلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ : «إذا فرغ أحدُكم من التشهد الآخر: فليتعوّذ بالله من أربع : من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والمات، ومن شرِّ المسيح الدجّال»(١).

3 – 4 = نزولُ عيسى بن مريم عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج :

أكتفي في خبر نزول عيسى عليه السلام وفي خبر يأجوج ومأجوج بما ورد في حديث النوّاس السابق، وفيه – بعد الحديث عن الدجال – :

« فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْن(٢)، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْن ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَر، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤ ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَات ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُه، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَه بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُه ...

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّور(٣)، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة(٤)، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ

---

(١) رواه مسلم (ح/ 588).

(٢) المهرودتان : الثوبان المصبوغان بورس ثم بزعفران.

(٣) أي : ضمَّهم واجعله لهم حرزاً. ومعنى «من كل حدَب ينسلون» : الحدب: النشز، أي : المكان المرتفع، وينسلون : يمشون مسرِعين.

(٤) طبرية : بحيرة ومدينةٌ في شمال فلسطين، غربُها موقع حطين، ويخرج منها نهرُ الأردن ليصبَّ بالبحر الميت.

لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ[١] فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى[٢] كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ[٣] وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ[٤] فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ[٥] بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ[٦]، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا[٧]، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ[٨] مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ

---

(١) النغَفُ جمعُ نغفة، وهي دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم، وهي وإن كانت محتقَرة : إلا أن إتلافَها شديد.

(٢) أي : هلكى قتلى، من فرسَ الذئبُ الشاة : إذا قتلها، ومنه الفريسة.

(٣) الزّهَمُ : النتنُ والرائحة الكريهة، وأصلُه : ما يعلقُ باليد من ريح اللحم.

(٤) البُخت : إبلٌ غلاظ الأعناق، عظام الأسنان.

(٥) لا يَكنُّ منه : لا يستتر من ذلك المطر لكثرته بيتٌ مبني بالطين، ولا بيتُ شَعر ولا وبر.

(٦) الزلَفة: قيل : المرآة، شبهها بالمرآة في صفائها ونظافتِها، وقيل : كمصانع الماء، أي : أن الماءَ يستنقعُ فيها حتى تصير كالمصنع الذي يجتمعُ فيه الماء.

(٧) القِحفُ : أعلى الجمجمة، وهي المحتوية على الدماغ، واستعاره هنا للرّمّانة للشبَه الذي بينهما.

(٨) اللقحة – بكسر اللام وفتحها، وهي القريبةُ العهد بالولادة.

كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ[1] فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»[2].

وقد أنكرَ بعضُ الكُتّاب العصريين وجودَ يأجوج ومأجوج ووجودَ السدّ، وبعضُهم يؤول النصوص بما لا تحتملُه، وليس لهم شبهة يستندون إليها إلا قولهم: إن الأرضَ قد اكتُشِفَت كلها، فلم يوجد ليأجوج ومأجوج ولا للسدِّ مكان فيها!

والجواب عن ذلك: أن كونَ المكتشفين لم يعثروا على يأجوج ومأجوج وسدِّهم لا يدل ذلك على عدم وجودهم، بل يدل على عَجز البشر عن الإحاطةِ بملكوته ﷻ، وقد يكون الله ﷻ صَرَفَ أبصارَهم عن رؤيتهم، أو جَعلَ أشياءَ تمنعُ من الوصولِ إليهم، والله تعالى قادرٌ على كل شيء، وكلُّ شيءٍ له أجل، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:66-67].

وما الذي أعمى أبصارَ الأوائل وأعجزَ قدراتِهم عن كنوز الأرض التي اكتشفَها المعاصرون، كالنّفطِ وغيره، إلا أن الله ﷻ جعلَ لذلك أجلاً ووقتاً؟! فيجب الإيمانُ بكل ما وردَ في الكتاب والسنة من ذكر يأجوج ومأجوج وغير ذلك من الغيبيات.

---

(١) يتهارَجون فيها تهارج الحمر: أي: يجامعُ الرجلُ النساءَ علانيةً بحضرة الناس، كما يفعل الحَمير، ولا يكترثون لذلك، والهَرْجُ – بإسكان الراء –: الجماع.

(٢) رواه مسلم (ح/ 2937).

5- خروج الدابة :

هذه الدابةُ آيةٌ من آيات الله تخرج في آخر الزمان، عندما يكثر الشر، ويعم الفساد، وقد وردَ ذكرُها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82].

ولم يأتِ في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة ذكرُ كيفية هذه الدابة، وإنما أثرها المقصود منها، وأنها من آيات الله تعالى، ولا شك أنها مخالفة لمعهود البشر من الدواب، ومن ذلك أنها تكلم الناسَ وتخاطبُهم.

6-8= الخسوفات الثلاثة :

سبق في حديث حذيفة بن أسيد ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال : «إن الساعةَ لن تقومُ حتى تروا عشرَ آياتٍ... (فذكر منها :) وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب»(1).

والصحيح أن هذه الخسوفات الثلاثة لم تقع بعدُ كغيرها من الأشراط الكبرى التي لم يظهر شيءٌ منها.

9- طلوع الشمس من مغربها :

قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158].

وقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المرادَ ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوعُ الشمس من مغربها، وهو قولُ أكثر المفسرين، ومما وردَ فيه من الأحاديث : ما

---

(1) رواه مسلم (ح/ 2901).

رواه أبو هريرة ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس : آمنوا أجمعون، فذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]»(١).

10- النار التي تحشر الناس :

وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة: نارٌ تخرج من قعر عدن، تحشر الناسَ إلى محشرهم، ومن الأحاديث الواردة في ذلك: حديث حذيفة ﷺ في ذكر أشراط الساعة الكبرى – الذي سبق ذكرُه – وفيه: «وآخرُ ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد الناسَ إلى محشرهم»(٢).

والأرض التي تحشر النارُ الناسَ إليها : هي بلادُ الشام، وقد ذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أن هذا الحشرَ يكون في الآخرة، ولكن الجمهورَ من أهل العلم على أن هذا الحشرَ يكون في آخر عمر الدنيا، وهذا هو الذي تدل عليه الأحاديث.

وقد وردَ في الحديث بيانُ كيفية حشر النار للناس، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِين ، وَاثْنَانِ عَلى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةٌ عَلى بَعِيرٍ وَعَشَرَةٌ عَلى بَعِير، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»(٣).

---

(١) رواه البخاري (ح/ 6506)، ومسلم (ح/ 157).

(٢) رواه مسلم (ح/ 2901).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6522)، ومسلم (ح/ 2861).

الفصل الثالث
القيامة الصغرى والقيامة الكبرى

المبحث الأول : القيامة الصغرى :

وسأتحدث فيه عن الموت، والروح، وفتنة القبرِ وعذابِه ونعيمِه.

أولاً : الموت :

من مقدمات اليوم الآخر : الموت، وهو القيامة الصغرى، وهي وفاة كل شخصٍ عند انتهاء أجله، وبها ينتقل من الدنيا إلى الآخرة.

وقد ذكّر الله تعالى العبادَ بالموت؛ ليستعدوا له بالأعمال الصالحةِ والتوبةِ من الأعمال السيئة؛ لأنه إذا جاء : خَتَمَ عملَ الإنسان، وهو لا يقبل التأخير، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 9-11]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185].

والموتُ هو القيامةُ الصغرى، وقيامُ الساعة هو القيامة الكبرى.

واللهُ سبحانه وتعالى في السورة الواحدة يذكر القيامةَ الكبرى والصغرى؛ كما في سورة الواقعة؛ فإنه ذكر في أولها القيامةَ الكبرى، وأن الناسَ يكونون أزواجاً ثلاثة، كما قال تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ [الواقعة: 1-7].

ثم إنه في آخرها ذكر القيامةَ الصغرى بالموت، وأنهم يكونون ثلاثة أصناف بعد الموت، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 83-94].

وعند الموت تُقبضُ روحُ الإنسان من جسده بأمر الله تعالى.

وقد أسندَ الله تعالى قبضَ الأنفسِ إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]، وأسنده إلى ملَكِ الموتِ عليه السلام في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11]، وأسندَه إلى الملائكةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، ولا تعارضَ بين الآيات، والإضافةُ في هذه الآيات إلى كلٍّ بحسبه:

- فالله تعالى هو الذي قضى بالموتِ وقدَّره؛ فهو بقضائه وقدَره وأمره، فأضيف إليه التوفي لأجل ذلك.
- وملَكُ الموت يتولى قبضَها واستخراجَها من البدن.
- ثم تأخذُها منه ملائكةُ الرحمة أو ملائكةُ العذاب، ويتولونها بعده.

فصحّت إضافةُ التوفي إلى كلٍّ بحسبه.

التوفي بالنوم والتوفي بالموت :

الروحُ المدبِّرةُ للبدن التي تفارقُه بالموت : هي الروحُ المنفوخةُ فيه، وهي النفسُ التي تفارقُه بالنوم، قال النبيُّ ﷺ لَـمّا نام عن الصلاة : «إن الله قبضَ أرواحَكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء»[1].

وقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر : 42].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما وأكثرُ المفسرين: يقبضُها قبضتَين : قبض الموت، وقبض النوم، ثم في النوم يقبض التي تموتُ ويرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمى حتى يأتي أجلُها وقت الموت.

وقد ثبتَ في الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه كان يقول إذا نام : «باسمكَ ربِّي وضعتُ جنبي، وبك أرفعُه، إن أمسكتَ نفسي؛ فاغفر لها، وإن أرسلتَها؛ فاحفظها بما تحفظ به عبادكَ الصالحين»[2].

وهذا أحدُ القولين في الآية، وهو أن الـمُمْسَكة والمرسَلة كلاهما متوفى وفاة النوم؛ فمَن استكمَلت أجلَها : أمسكَها عنده فلا يردُّها إلى جسدها، ومَن لم تستكمل أجلَها : ردَّها إلى جسدها لتستكملَه.

والقول الثاني : أن الـمُمسَكَة : مَن توفيت وفاةَ الموت أولاً، والـمُرسَلَة : مَن توفيت وفاةَ النوم، والمعنى على هذا : أن الله تعالى يتوفى نفسَ الميت فيمسكُها ولا

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ 595)، وأخرجه مسلم (ح/ 681) مطولاً بدون هذه الجملة، كلاهما من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6320، 7393)، ومسلم (ح/ 2714).

يُرسلُها قبل يوم القيامة، ويتوفّى سبحانه نفسَ النائم ثم يرسلُها إلى جسده إلى بقية أجلِها، فيتوفاها الوفاة الأخرى؛ قال تعالى﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام:60].

ثانياً : الروح والنفس :

أ- حقيقة الروح : مذهبُ أهل السنة أن الروح عينٌ قائمةٌ بنفسها، تفارقُ البدن، وتنعم، وتعذب، ليست هي البدن، ولا جزء من أجزائه، وليست من جنس الأجسام المتميزات المشهودة المعهودة، وأما الإشارة إليها : فإنه يُشار إليها، وتصعد، وتنزل، وتخرج من البدن، وتسيل منه، كما جاءت بذلك النصوص.

ولا اختصاص للروح بشيء من الجسد، بل هي ساريةٌ في الجسد كما تسري الحياةُ التي هي عَرَضٌ في جميع الجسد؛ فإن الحياة مشروطةٌ بالروح، فإذا كانت الروحُ في الجسد : كان فيه حياة، وإذا فارقته الروح : فارقته الحياة.

وروح الآدمي مخلوقةٌ مُبدَعةٌ باتفاق سلف الأمة وأئمتِها وسائرِ أهل السنة، ولم يُخالف في ذلك إلا الفلاسفة ومَن تبعهم ممن لا خبرة له بالنصوص الشرعية.

ب- كيفية قبض روح المتوفى ومآلُها بعد وفاته :

قد جاءَ بيانُ كيفية التوفي ومآل الروح بعده في حديث البراء بن عازب الطويل – رضي الله عنهما – حيث يقول :

كنا في جنازةٍ في بقيع الغرقد، فأتانا النبيُّ ﷺ فقعدَ وقعدنا حوله كأنّ على رؤوسنا الطير وهو يُلحَدُ له، فقال : «أعوذ بالله من عذاب القبر» ثلاث مرات.

ثم قال : «إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في إقبالٍ من الآخرةِ وانقطاعٍ من الدنيا: نزلت إليه الملائكة، كأن على وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنوطٌ من حنوط الجنة، فجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيءُ ملَكُ الموت حتى يجلس

عند رأسه فيقول : يا أيتها النفسُ الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ.

قال : «فتخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ مِن في السقاء، فيأخذُها، فإذا أخذها: لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في الكفنِ وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجِدَت على وجه الأرض».

قال : «فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكةِ إلا قالوا : ما هذه الروحُ الطيبة ؟ فيقولون : فلانُ ابنُ فلان؛ بأطيبِ أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فيُفتَح له، فيُشَيِّعُه من كل سماءٍ مُقَرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله [1]، فيقول الله ﷻ : اكتبوا كتابَ عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أخرجتُهم تارةً أخرى».

قال : «فتُعاد روحُه في جسده، فيأتيه ملَكان، فيُجلِسانه فيقولان له : مَن ربُّك؟ فيقول : ربي الله، فيقولان له : ما دينُك؟ فيقول : ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول : هو رسولُ الله. فيقولان له : ما عِلمُك؟ فيقول : قرأتُ كتابَ الله فآمنتُ به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة».

قال : «فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مَدَّ بصره».

قال: «ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه، حسَنُ الثياب، طيبُ الريح، فيقول: أبشر

---

(١) قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وقولُه : «فيها الله»: بمنزلة قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾».

بالذي يسرّك، هذا يومك الذي كنتَ توعَد. فيقول له: مَن أنت؟ فوجهُك الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملُك الصالح. فيقول: يا رب ! أقم الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلي ومالي.

قال : وإن العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة : نزل إليه من السماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوح (١)، فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيءُ ملَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفسُ الخبيثة ! اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب».

قال : «فتفرَّقَ روحُه في جسده، فينتزعُها كما ينتزعُ السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها : لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثةٍ وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلان؛ بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَح له».

ثم قرأ رسولُ الله ﷺ : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40] فيقول الله ﷻ : اكتبوا كتابَه في سجينٍ في الأرض السفلى، فتُطرح روحُه طرحاً».

ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، فتُعاد روحُه في جسده، ويأتيه ملَكان، فيُجلِسانه،

---

(١) المسوح جمعُ « مِسْح » وهو الكساءُ من الشَّعر.

فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول : هاه هاه ! لا أدري. فيقولان له : ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول : هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء : أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعُه.

ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، منتِنُ الريح، فيقول : أبشر بالذي يسوءُك، هذا يومك الذي كنتَ توعَد. فيقول : مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ الذي يجيء بالشر ! فيقول : أنا عملُك الخبيث. فيقول : ربِّ لا تُقِمِ الساعة»[1].

«وذهبَ إلى موجب هذا الحديث جميعُ أهل السنة والحديث، وله شواهدُ في الصحيح»[2].

ج- هل الروحُ والنفسُ شيءٌ واحدٌ أو شيئان متغايران ؟

اختلف الناسُ في ذلك : فمن قائل : إنهما شيءٌ واحد، وهم الجمهور، ومن قائل : إنهما متغايران.

والتحقيق : أن لفظ الروح والنفس يُعبَّر بهما عن عدة معان، فيتحد مدلولُهما تارة، ويختلف تارة؛ فالنفسُ تطلق على أمور :

- منها : الروح، يقال: خرجت نفسُه، أي : روحُه، ومنه قولُه تعالى : ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93].
- ومنها : الذات، يُقال : رأيت زيداً نفسَه وعينَه، ومنه قولُه تعالى : ﴿فَإِذَا

---

(١) أخرجه أحمد (4/ 287، 295-296)، وأبو داود (ح/ 4753)، والطيالسي (ح/ 753)، وهو حديث صحيح.

(٢) قاله ابنُ أبي العز الحنفي في (شرح العقيدة الطحاوية) (2/ 607).

دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: 61].

- ومنها : الدم، يُقال : سالت نفسُه، ومنه قولُ الفقهاء : ما له نفسٌ سائلة، وما ليس له نفس سائلة، ومنه يُقال : نفَسَت المرأة : إذا حاضت، ونفست: إذا نفسها ولدُها، ومنه النفساء.

والروحُ أيضاً تطلق على معان :

- منها : القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسله عليهم السلام ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: 52].
- ومنها : جبريل عليه السلام ، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193].
- ومنها : الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسُلِه عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15]، سمي روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياةَ بدونه لا تنفع صاحبَها البتة، وسميت الروحُ روحاً لأن بها حياة البدن.
- وتُطلق الروح أيضاً على الهواء الخارج من البدن والهواءِ الداخلِ فيه.
- وتُطلق أيضاً على ما سبق بيانُه، وهو ما يحصل بفراقه الموت.

وهي بهذا الاعتبار الأخير ترادفُ النفسَ ويتحد مدلولهُما، ويفترقان في أن النفسَ تُطلق على البدن وعل الدم، والروحُ لا تُطلق عليهما. والله تعالى أعلم.

ثالثاً : فتنة القبر وعذابه ونعيمه :

سبق أن الإيمانَ باليوم الآخر يعني الإيمان بكل ما أخبرَ به النبيُّ ﷺ مما يكون بعد الموت، ومن ذلك الإيمانُ بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمِه.

وذلك أن بين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولى وبين البعث الذي تبتدئ به

الحياة الثانية – وبعبارة أخرى : بين القيامة الصغرى والقيامة الكبرى – فترة جاءت تسميتُها في القرآن الكريم بالبرزخ، قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99-100].

والبرزخ لغةً : الحاجز بين الشيئين، وفي هذا البرزخ نموذجٌ من العذاب أو النعيم الأخروي؛ فهو أول منزلٍ من منازل الآخرة، ففيه سؤال الملَكين ثم العذاب أو النعيم.

أولاً : سؤال الملَكين :

ويسمى بفتنة القبر، وهي الامتحان والاختبار للميت حين يسأله الملَكان.

وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ في هذه الفتنةِ من حديث البراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وغيرهم ﷺ .

وهي عامةٌ للمكلفين إلا النبيين، فقد اختُلِف فيهم، وكذلك اختُلف في غير المكلفين كالصبيان والمجانين، فقيل : لا يُفتنون، وقيل : يُفتنون، ولعل الراجح هو أنهم لا يُفتنون؛ لأن المحنةَ إنما تكون للمكلفين.

واختلفوا : هل السؤالُ في القبر عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

فقيل : يختص ذلك بالمسلم والمنافقِ دون الكافر الجاحد المعطل.

وقيل : السؤال في القبرِ عام للكافر والمسلم. وهذا هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة، واستثناءُ الكافرِ من هذا لا وجهَ له.

صفة سؤال الملَكين :

سبق في حديث البراء بن عازب – رضي الله عنهما – قولُه ﷺ : «فتُعاد روحُه

(يعني : الميت) في جسده، ويأتيه ملَكان... ».

وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «إن الميت إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابُه؛ إنه ليَسمعُ خفقَ نِعالِهم : أتاه ملَكان، فيُقعِدانه، فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد ؟

فأما المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه. قال: فيقول : انظر إلى مقعدك من النار؛ قد أبدلكَ الله به مقعداً من الجنة. قال رسولُ الله ﷺ : «فيراهما جميعاً ».

قال : فأما الكافرُ والمنافق : فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري ! كنتُ أقول ما يقول الناس. فيقولان له : لا دريت ولا تليت. ثم يُضرب بمطارق من حديدٍ بين أذنيه، فيصيح صيحةً، فيسمعُها مَن عليها غير الثقلين»[١].

وفي حديث آخر : «أتاه ملَكان أسودان أزرقان، يُقال لأحدهما : المنكر، والآخرُ : النكير»[٢].

فهذه الأحاديث وما جاء بمعناها تدل على مسائل منها :

١ -أن السؤال يحصل حين يوضعُ الميتُ في قبره، وفيه ردٌّ على مَن زعم من أهل البدع من المعتزلة أن السؤال يقع بين النفختَين.

٢ -تسميةُ الملَكين منكر ونكير، وفيه ردٌّ على مَن زعم من المعتزلة أنه لا يجوز تسميتُهما بذلك.

٣ -أن روحَ الميت تُرَدُّ إليه في قبره حين السؤال، وأنه يُجلس، ويُستنطَق، وفيه ردٌّ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ 1374)، وأخرجه مسلم (ح/ 2870) مختصراً.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ 1083)، وابن حبان في صحيحه (ح/ 3117)، وهو حديث حسن.

على مَن نفى ذلك إلا إن كان يريد نفيَ الحياة المعهودة في الدنيا؛ فهذا صحيح؛ فإن عَود الروح إلى بدن الميت ليس مثل عَودها إليه في هذه الحياة الدنيا، وإن كان ذاك قد يكون أكمل من بعض الوجوه، كما أن النشأة الأخرى ليست مثل هذه النشأة، وإن كانت أكمل منها، بل كلُّ موطن في هذه الدار وفي البرزخ والقيامة له حكمٌ يخصه، ولهذا أخبرَ النبيُّ ﷺ أن الميتَ يُوسَّعُ له في قبره ويُسأل، ونحو ذلك، وإن كان الترابُ قد لا يتغير؛ فالأرواحُ تُعاد إلى بدن الميتِ وتفارقُه.

وللروح بالبدن خمسةُ أنواع من التعلق متغايرة الأحكام إليك بيانَها :

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث : تعلقها به حالَ النوم؛ فلها به تعلقٌ من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع : تعلقها به في البرزخ؛ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه : فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى إليه التفاتٌ البتة؛ فقد دلَّت الأحاديثُ على ردِّها إليه عند سؤال الملَكَين وعند سلامِ المسلِّم، وهذا الردُّ إعادةٌ خاصة لا توجِبُ حياةَ البدن قبل يوم القيامة.

الخامس : تعلُّقُها به يوم يُبعث الأجساد، وهو أكملُ تعلقاتها بالبدن، ولا نسبةَ لما قبله من أنواع التعلقِ إليه؛ إذ هو تعلقٌ لا يَقبلُ البدنُ معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً.

ثانياً : عذاب القبر ونعيمُه :

مذهبُ أهل السنة والجماعة أن الميتَ إذا ماتَ يكون في نعيمٍ أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروحَ تبقى بعد مفارقة البدن مُنَعَّمةً أو معَذَّبة،

وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل له معها النعيمُ أو العذاب.

فأهلُ السنة والجماعة يتفقون على أن النفسَ تنعم وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلةً بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون النعيمُ والعذابُ عليهما في هذه الحال مجتمعَين؛ كما يكون ذلك على الروح منفردةً عن البدن.

أدلة عذاب القبر ونعيمِه من القرآن الكريم والسنة النبوية :

أولاً : من القرآن الكريم :

١ -قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]، وهذا خطابٌ لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة – وهم الصادقون – أنهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا : لَـما صَحَّ أن يُقال لهم : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، فدلَّ على أن المرادَ به عذاب القبر.

٢ - وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 45-47]، وهذا يحتمل عذابَهم بالقتل وغيرِه في الدنيا، وأن يُراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يُعذَّب في الدنيا. وقد يُقال – وهو أظهر – : إن مَن مات منهم : عُذِّب في البرزخ، ومَن بقي منهم : عُذب في الدنيا بالقتل وغيرِه؛ فهو وعيدٌ بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ.

٣ - وقال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾

[غافر: 45-46]، فذكرَ عذابَ الدارين ذكراً صريحاً لا يَحتملُ غيرَه، فدل على ثبوت عذاب القبر.

٤ - وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 94]، فذكرَ هنا أحكامَ الأرواح عند الموت، وذكرَ في أول السورة أحكامَها يوم المعاد الأكبر، وقدَّمَ ذلك على هذا تقديمَ الغاية؛ للعناية بأحكامها؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلَهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلَهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

٥ - ومن الإشارات القرآنية الواضحة، الدالة على فتنة القبرِ وعذابِه : قولُه تبارك وتعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]، ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب – رضي الله عنهما – عن النبيِّ ﷺ قال : «إذا أُقعِدَ المؤمنُ في قبره : أُتِيَ ثم شَهِد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله: فذلك قولُه : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»، وفي رواية أخرى : وزاد : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت في عذاب القبر»[1].

ثانياً : أدلة عذاب القبر ونعيمِه من السنة النبوية :

إذا تأملت أحاديثَ عذاب القبر ونعيمه : وجدتَها تفصيلاً وتفسيراً لما دلَّ عليه القرآن الكريم.

---

(١) رواه البخاري (ح/ 1369).

وأحاديث عذاب القبر كثيرةٌ متواترةٌ عن النبي ﷺ ومنها :

١ -ما في الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبيَّ ﷺ مَرَّ بقبرين فقال : «إنهما ليعذبان، وما يُعذبان في كبير : أما أحدُهما : فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة »، ثم دعا بجريدة، فشقَّها نصفين، فقال: «لعله يُخفف عنهما ما لم ييبسا»[١].

٢ -عن زيد بن ثابت ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ في حائطٍ لبني النجار على بغلةٍ له، ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، فإذا أقبُرٌ ستةٌ أو خمسةٌ أو أربعة، فقال: من يعرف أصحابَ هذه القبور؟، فقال رجل: أنا. قال: «متى مات هؤلاء؟» قال: ما توا في الإشراك. فقال: «إن هذه الأمةَ تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تَدَافَنُوا: لدعوتُ الله أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه»[٢]. الحديث.

٣ -وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «إذا فرغ أحدُكم من التشهد الأخير : فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[٣].

٤ -وعن أبي أيوب ﷺ قال : خرج النبيُّ ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتاً فقال : «يهود تُعذَّبُ في قبورها»[٤].

٥ -وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : دخلت عليَّ عجوزان من عجوز يهود

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 218)، ومسلم (ح/ 292).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ 2867).

(٣) أخرجه مسلم (ح/ 588)، وأخرجه البخاريُّ (ح/ 1377) بنحوه.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 1375)، ومسلم(ح/ 2869).

المدينة، فقالتا لي: إن أهلَ القبور يُعذبون في قبورهم، فكذّبتُهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين – وذكرتُ له – فقال: «صدقتَا؛ إنهم يُعذبون عذاباً تسمعُه البهائمُ كلُّها»، فما رأيتُه بعدُ في صلاةٍ إلا يتعوذ من عذاب القبر[1].

٦ -ولعظم هذا الأمر وخطورتِه: كان الرسولُ ﷺ يعلمُه لأصحابه، بل وخطبَ فيهم مرةً به، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر– رضي الله عنها – قالت: «قام رسولُ الله ﷺ خطيباً فذكر فتنةَ القبر التي يفتَتِنُ فيها المرء، فلما ذكرَ ذلك: ضجّ المسلمون ضجة»[2].

وزاد النسائي من الوجه الذي أخرجه منه البخاري: «حالت بيني وبين أن أفهم كلامَ رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجتُهم قلتُ لرجلٍ قريبٍ مني: أي باركَ الله لك، ماذا قال رسولُ الله ﷺ في آخر كلامه؟ قال: قال: «قد أوحي إليّ أنكم تُفتنون في القبور قريباً من فتنة المسيح الدجال»[3].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهي متواترة كما أسلفت.

تنبيه:

عذابُ القبر أو نعيمُه وسؤال الملكَين ينالان كلَّ مَن مات ولو لم يُدفن؛ فهو اسمٌ لعذاب البرزخ ونعيمِه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100]، وسمي عذاب القبر باعتبار الغالب؛ فالمصلوب

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6366) ومواضع أخرى، ومسلم (ح/ 586).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ 1373).

(٣) سنن النسائي (ح/ 2062)، في كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر.

والمحرق والمغرق وأكيل السباع والطيور: له من عذاب القبر ونعيمِه قسطُه الذي تقتضيه أعمالُه، وإن تنوعت أسبابُ النعيم والعذاب وكيفياتُهما.

وقد ظن بعضُ الأوائل أنه إذا حرق جسدَه بالنار، وصار رماداً، وذرى بعضَه في البحر، وبعضَه في البر في يومٍ شديدِ الريح : أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمرَ الله البحرَ فجمع ما فيه، وأمرَ البَرَّ فجمع ما فيه، ثم قال : قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله : ما حملك على ما فعلت؟ فقال : خشيتُك يا رب! وأنتَ أعلم، فغفرَ الله له [1]. فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال.

حتى لو عُلِّقَ الميتُ على رؤوس الأشجار في مهابِّ الريح : لأصاب جسدَه من عذاب البرزخ حظُّه ونصيبُه، ولو دُفن الرجلُ الصالحُ في أتونٍ من النار : لأصابَ جسدَه من نعيم البرزخ ورَوْحِه نصيبُه وحظُّه، فيجعلُ الله تعالى النارَ على هذا برداً وسلاماً، والهواءَ على ذلك ناراً أو سموماً.

فعناصرُ العالَـم وموادُّه منقادةٌ لربها وفاطرها وخالقِها، يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصي منها شيء أراده، بل هي طوع أمرِه ومشيئتِه، منقادة لقدرته، فغيرُ ممتنع أن تُرد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود؛ فهذا المغمى عليه والمسكور والمبهوت أحياءُ وأرواحُهم معهم ولا تشعر بحياتهم، ومَن تفرقت أجزاؤه لا يمتنعُ على مَن هو على كل شيءٍ قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ 7506)، ومسلم (ح/ 2756).

تلك الأجزاء شعورٌ بنوعٍ من الألم واللذة.

وإذا كان الله تعالى قد جعلَ في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبِّحُ ربَّها به، وتسقط الحجارةُ من خشيتِه، وتسجد له الجبالُ والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]؛ فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساسُ والشعورُ : فالأجسامُ التي كانت فيها الأرواح والحياة أولى بذلك.

وقد أشهد الله سبحانه عبادَه في هذه الدار إعادةَ حياة كاملةٍ إلى بدنٍ قد فارقته الروحُ، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له، قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243].

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259].

وكقبيل بني إسرائيل الذين قالوا لموسى : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، فأماتهم الله تعالى ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم عليه السلام في الطيور الأربعة.

فإذا أعادَ الحياةَ التامةَ إلى هذه الأجساد بعدما بردت بالموت : فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يُعيد إليها بعد موتها حياةً ما غيرَ مستقرة، يقضي بها أمرَه فيها، ويستنطقُها بها، ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟! أليس إنكارُ ذلك مجرد تكذيبٍ وعناد وجحود؟!

المنكرون لعذاب القبر ونعيمِه، وشبهتُهم والرد عليهم :

أنكرت الملاحدةُ والزنادقةُ عذابَ القبر ونعيمَه، وقالوا : إنا نكشف القبرَ فلا

نجد فيه ملائكةً يضربون الموتى، ولا حيّات، ولا ثعابين، ولا نيران تأجج ! وكيف يُفسَح له مَدَّ بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله، ونجد مساحتَه على حد ما حفرناه له، ولم يزد ولم ينقص ؟ وكيف يصير القبرُ روضةً من رياض الجنة أو حفرةً من حفر النار؟

والجواب على ذلك من وجوه :

أولاً : أن حال البرزخ من الغيوب التي أخبرت بها الأنبياء عليهم السلام، ولا يكون خبرُهم محالاً في العقول أصلاً، فلا بد من تصديق خبرهم.

ثانياً : أن النارَ والخضرةَ في القبر ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيُشاهِدَ ذلك مَن شاهَدَ نارَ الدنيا وخضرَها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها، وهي أشد من نار الدنيا، فلا يحسُّ بها أهلُ الدنيا؛ فإن الله سبحانه وتعالى يُحمي عليه ذلك التراب والحجارةَ التي عليه وتحته، حتى تكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا، ولو مسَّها أهلُ الدنيا : لم يحسّوا بذلك، وقدرةُ الرب أوسع من ذلك وأعجب.

وإذا شاء الله تعالى أن يُطلِعَ بعضَ العباد على عذاب القبر : أطلَعَه، وغَـيَّـبَه عن غيره؛ إذ لو اطلع العبادُ كلهم : لزالت حكمةُ التكليف والإيمان بالغيب، ولَـمَا تدافنَ الناس، كما في الصحيحين في الحديث الذي مَرَّ من قوله ﷺ : « لولا أن لا تدافَنوا : لدعوتُ الله أن يُسمِعَكم من عذاب القبر ما أسمع »، ولَـمّا كانت هذه الحكمةُ منتفيةً في حق البهائم: سمعت ذلك وأدركته، كما حادت برسول الله ﷺ بغلتُه وكادت تلقيه لَـمّا مرَّ بمن يُعذّب في قبره.

فرؤيةُ هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن؛ تقع أحياناً لمن شاء الله تعالى أن يُريه ذلك.

وكيف يستنكرُ مَن يَعرف الله سبحانه ويُقِرُّ بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصارَ بعض خلقه؛ حكمةً منه ورحمةً بهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيتَها وسماعَها، والعبدُ أضعفُ بصراً وسمعاً من أن يَثبُتَ لمشاهدة عذاب القبر.

وسِرُّ المسألة : أن هذه السعةَ والضيقَ والإضاءةَ والخضرةَ والنارَ ليس من جنس المعهود في هذا العالَم، والله سبحانه إنما أشهَدَ بني آدمَ في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة : فقد أسبلَ عليه الغطاء؛ ليكون الإقرارُ به والإيمانُ به سبباً لسعادتهم، فإذا كشف عنهم الغطاء : صار عياناً مشاهَداً، فلو كان الميتُ بين الناس موضوعاً : لم يمتنع أن يأتيه الملَكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبَهما من غير أن يسمعوا كلامَه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربَه.

وهذا الواحدُ منا ينامُ إلى جنب صاحبه المستيقظ، فيُعذَّبُ في النوم، ويُضرب ويتألم، وليس عند المستيقظِ خبرٌ من ذلك البتة.

المبحث الثاني : القيامة الكبرى :

وسأتحدث فيه عن: البعث والنشور، وما سيكون في الموقف من: الحساب، وإعطاء الصحائف، ووزن الأعمال، والصراط والمرور عليه، والحوض، والشفاعة، ثم الجنة والنار.

أولاً : البعث والنشور :

المراد بالبعث: المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يوم المعاد، والنشور: مرادفٌ للبعث في المعنى، يُقال: نشر الميت نشوراً: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله تعالى: أحياه.

فإذا شاء الحقُّ تبارك وتعالى إعادةَ العباد وإحياءَهم: أمرَ إسرافيلَ فنفخ في الصور، فتعود الأرواحُ إلى الأجساد، ويقومُ الناسُ لرب العالَمين، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68]، وحدثنا الحقُّ تبارك وتعالى عن مشهد البعث العجيب فقال ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 51-53].

وقد جاء في الأحاديث أنه يسبق النفخةَ الثانيةَ في الصورِ نزولُ ماءٍ من السماء، فتنبت منه أجسادُ العباد، فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال : قال رسولُ الله: «ثم يُنفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتاً[1].

قال : وأول مَن يسمعه رجلٌ يلوطُ حوضَ إبله، قال : فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال : ينزل الله – مطراً كأنه الطَّلُّ أو الظِّلُّ فتنبتُ منه

---

(١) اللِّيت : صفحةُ العنق، وهما لِيْتان، وأصغى : أمالَ.

أجسادُ الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون»[(١)].

وإنباتُ الأجساد من التراب بعد إنزال الله تعالى ذلك الماء الذي يُنبتُها : يماثلُ إنباتَ النبات من الأرضِ إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا، ولذا فإن الله تعالى قد أكثرَ في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات بعد نزول الغيث، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 56]، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: 9].

ولاحِظ في كلا الموضعين قولَه : ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؛ فإنهما يدلان على المماثلة والمشابهةِ بين إعادة الأجسامِ بإنباتِها من الترابِ بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء.

ومن المعلوم أن النباتَ يتكوّنُ من بذورٍ صغيرةٍ تكون في الأرض ساكنةً هامدة، فإذا نزل عليها الماءُ تحركت الحياةُ فيها، وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إلى السماء، فإذا هي نبتةٌ مكتملةٌ خضراء.

والإنسانُ يتكون في اليوم الآخر من عظمٍ صغيرٍ هو عَجَبُ الذَّنَب [(٢)]، عندما يصيبه الماءُ ينمو نموَّ البقل، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون ... ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً، فيَنْـبُتُون كما ينبُت البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب، ومنه يُركَّبُ الخلقُ يوم

---

(١) أخرجه مسلم (4/ 2259–ح/ 2940).

(٢) وهو العظمُ في أسفل الصُّلب عند العَجُز.

القيامة»[1].

أدلة البعث والنشور :

وقوعُ البعث من القبور قد دلَّ عليه الكتابُ والسنة والعقل والفطرةُ السليمة؛ أخبرَ الله تعالى عنه في كتابه العزيز، وأقام عليه الدليل، وردَّ على منكريه في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن العظيم، وقد أخبرت عنه جميعُ الأنبياء أممَها، وطالبت المنكرين بالإيمان به، ولما كان نبيُّنا محمد ﷺ خاتَمُ الأنبياء، وكان قُربُ بعثتِه من الساعة كقُرب أُصبُعَي السبّابة والوسطى من بعضِها البعض : بيّن تفاصيل الآخرة تفصيلاً لا يوجد في شيءٍ من كتب الأنبياء عليهم السلام قبله.

والقرآن الكريمُ كله من فاتحته إلى خاتمته مملوءٌ بذكر أحوال اليوم الآخر، وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبةِ للاعتبار والإرشاد، وكما ذكر القرآنُ الكريمُ الأدلة عليه: ردَّ على منكريه، وبين كذبَهم وافتراءَهم.

ولما استبعد المشركون إعادةَ الناس في حياةٍ أخرى بعد الموت، فأنكروا البعثَ والنشور : أمر الله تعالى نبيَّـه ﷺ أن يُقسم به على وقوعه، وأنه كائن لا محالة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: 3]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: 53]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: 7].

وأخبر عن اقتراب ذلك فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: 1]، ﴿ٱقۡتَرَبَ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 4935)، ومسلم (ح/ 2955)، واللفظ للبخاري.

لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1].

وذم المكذِّبين بالبعث فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18]، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 97-99].

والأدلة على البعث والنشور كثيرةٌ جداً في الكتاب والسنة، وقد سبقت بعضُها في بداية الفصل الأول.

وليوم القيامة أهوالٌ عظيمة وشدائد جسيمة تذيب الأكباد، وتُذهِل المراضع وتشيب الأولاد، وقد وصف سبحانه أهوالَ ذلك اليوم في آياتٍ كثيرة، من ذلك قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 1-2].

وبعد بعث الخلائق أحياء: يُجمعون في ساحة واحدة تُدعى عرصات القيامة، وذلك لفصل القضاء فيما بينهم.

ويواجه الناسُ في هذا الموقف أموراً عظيمةً يأتي ذكرُ بعضها في الفقرات الآتية.

ثانياً: الحساب: وهو تعريفُ الله سبحانه الخلائقَ مقاديرَ الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:

6]، **وقال تعالى:** ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 49]، **وقال سبحانه:** ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7-8].

ومن الحساب: إجراء القصاص بين العباد، فيُقتصُّ للمظلوم من الظالم، كما في حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسولَ الله ﷺ قال: «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامةِ حتى يُقاد للشاة الجَلحاء[1] من الشاة القرناء»[2].

والحساب متفاوت؛ فمنه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

فـ«يُحاسِب الله تعالى الخلائق، ويخلُو بعبده المؤمن، فيُقَرِّرُه بذنوبه؛ كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار: فلا يُحاسَبون محاسبةَ مَن توزَنُ حسناتُه وسيئاتُه؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم فتُحصى، فيوقَفون عليها ويُقَرَّرون بها، ويُجزَون بها»[3].

وأول ما يُحاسَب عنه العبدُ صلاتُه، وأول ما يُقضى بين الناس في الدماء، كما صحَّ بذلك الحديث.

ثالثاً: إعطاء الصحائف:

الصحائف: هي الكتب التي كتبتها الملائكة، وأحصوا فيها ما فعلَه كلُّ

---

(١) وهي التي لا قرن لها.

(٢) رواه مسلم (ح/ 6479).

(٣) قاله شيخ الإسلام في (العقيدة الواسطية) (ص/ 139، 143).

إنسان في الحياة الدنيا من الأعمال القوليةِ والفعلية.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13-14]، **قال العلماء: طائره : عمله.**

ومنهم مَن يُعطى كتابه بيمينه، ومنهم مَن يُعطى كتابه بشماله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ **إلى قوله :** ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾، **ثم قال سبحانه :** ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ **إلى قوله :** ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: 19-31].

رابعاً : وزن الأعمال :

مما يكون في هذا اليوم : وزن الأعمال، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 8-9]، **وقال تعالى:** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، **فالأعمالُ توزن بميزانٍ حقيقي له لسانٌ وكفتان.**

خامساً : الحوض :

وهو مما يُكرم الله تعالى به عبدَه ورسولَه محمداًﷺ في ذلك الموقف العظيم، وقد اختلف أهلُ العلم في موضعه : هل هو قبل الصراط أو بعده؟ والراجحُ أنه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، ومما يدل على ذلك أن بعضَ وارديه يؤخذ إلى النار، ففي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قال النبيُّﷺ : «إني على الحوضِ حتى أنظرَ مَن يَرِدُ عليَّ منكم، وسيؤخَذُ ناسٌ من دوني فأقول : يا

ربِّ، مني ومن أمتي، فيُقال : هل شعرتَ ما عملوا بعدك؟ والله ما بَرِحوا يرجعون على أعقابهم»[١]، فلو كان بعد الصراط لَـما استطاعوا الوصولَ إليه.

والأحاديث الواردة في الحوض متواترة، رواها أكثر من خمسين صحابيا - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم - ومن تلك الأحاديث :

1- ما أخرجه الشيخان وغيرُهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسولُ الله ﷺ : «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحُه أطيبُ من المسك، وكِيزانُه كنجوم السماء، مَن شربَ منه لا يظمأ أبداً»[٢].

2- وعن أنس بن مالك ﷺ قال : أغفى رسولُ الله ﷺ إغفاءةً، ثم رفع رأسَه مبتسماً فقال : «إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾»، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر ؟» فقلنا : الله ورسولُه أعلم.قال : «فإنه نهرٌ وعدَنيه ربي ﷻ ، عليه خيرٌ كثير، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عددُ النجوم، فيُختَلَجُ العبدُ منهم فأقول : رب، إنه من أمتي، فيقول : ما تدري ما أحدثَت بعدك»[٣].

سادساً : الصراط والمرور عليه :

ومما يكون يوم القيامة : المرور على الصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنم، يَرِدُه الأولون والآخرون، يمر الناسُ عليه على قدر أعمالهم، وهو أدق من الشَّعر، وأحَدُّ من

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6593)، ومسلم (ح/ 2293).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6579)، ومسلم (ح/ 2292).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (ح/ 400)

السيف، وأشد حرارةً من الجمر، عليه كلاليب تخطف مَن أُمِرَت بخطفه، يمر الناسُ عليه على قدر أعمالهم، فمنهم مَن يمر كالبرق، ومنهم مَن يمر كالريح، ومنهم مَن يمر كالفرس الجواد، ومنهم مَن يمر كهرولة الراجل، ومنهم مَن يمشي مشياً، ومنهم مَن يزحف زحفاً، ومنهم مَن يُخطف فيُلقى في جهنم، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

ويكون المرورُ على الصراط بعد مفارقة موقف الحساب ووزنِ الأعمال، وبيانِ السعيد من الشقي في الجملة.

سابعاً : الشفاعة :

الشفاعة لغة : الوسيلة والطلب، وعرفاً : سؤال الخير للغير، وقيل : هو من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافعَ ضَمَّ سؤالَه إلى سؤال المشفوع له.

والشفاعة حق إذا تحققت شروطُها، وهي : أن تكون بإذن الله تعالى ورضاه عن المشفوع له، قال تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: 26].

ففي هذه الآية الكريمة : أن الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين :

الأول : إذن الله تعالى للشافع أن يشفع؛ لأن الشفاعةَ ملكه سبحانه؛ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 44].

الثاني : رضاه عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد؛ لأن المشركَ لا تنفعُه الشفاعة؛ كما قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: 48].

وهذا يبين بطلانَ صنيع الذين يطلبون الشفاعةَ من الأموات، ويتقربون إليهم بأنواع القربات، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: 18]، **وقال تعالى:** ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: 43].

وقد أُعطي نبيُّنا ﷺ الشفاعة، فيشفع لِـمَن أذن الله تعالى له فيه.

وله ﷺ أنواعٌ من الشفاعات منها:

شفاعتُه ﷺ لأهل الموقف حتى يُقضى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء – آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم – عليهم السلام – الشفاعةَ حتى تنتهي إليه، وهو المقامُ المحمودُ الذي ذكرَه الله تعالى في القرآن.

ومنها: شفاعتُه ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وهاتان الشفاعتان خاصتان له ﷺ.

ومنها: الشفاعة في تخفيف العذابِ عمَّن يستحقُّه، كشفاعتِه ﷺ في عمِّه أبي طالب أن يخفف عنه عذابَه[1].

ومنها: شفاعتُه ﷺ فيمن استحقَّ النار.

وهذه الشفاعةُ له ولسائر النبيين – عليهم السلام – والصديقين وغيرِهم، فيشفع فيمَن استحقَّ النار أن لا يدخلَها، ويشفع فيمَن دخلَها أن يخرج منها.

وشفاعتُه ﷺ لأهل الذنوبِ من أمته متفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين، وأنكرها كثيرٌ من أهل البدع من الخوارج والمعتزلةِ وغيرهم، وقال هؤلاء: مَن يدخل النار لا يخرج منها، لا بشفاعة ولا بغيرها،

---

(١) كما في حديث البخاري (ح/ 3883، 6208)، ومسلم (ح/ 209) عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وعندهم ما ثَمَّ إلا مَن يدخل الجنةَ فلا يدخل النار، ومَن يدخل النارَ فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب.

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: 48]، وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: 254]، وبقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]، وبقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: 48].

وجواب أهل السنة: أن هذا يُراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: 42-48]، فهؤلاء لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين لأنهم كانوا كفاراً.

والثاني: أنه يُراد بذلك الشفاعة التي يُثبتُها أهلُ الشرك ومَن شابَهَهم من أهل الكتاب والمبتدعة، الذين يظنون أن للخلقِ عند الله تعالى من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناسُ في بعضهم عند بعض.

ثامناً: الجنة والنار:

بعد ما ينتهي الحساب في الموقف، ويتقرر مصيرُ كل واحد من الناس: ينتهي أمرُهم إما إلى الجنة إن كان من أهلها، وإما إلى النار إن كان من أهلها - أعاذنا الله منها - فالجنةُ والنار هما الداران العظيمتان اللتان لا تفنيان، فالجنةُ دار المتقين، والنارُ دار الكافرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13-14].

وهما مخلوقتان موجودتان الآن، قال تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24]، وغير ذلك من النصوص التي تدل على وجودهما الآن.

وهما باقيتان لا تفنيان، كما هو مذهبُ أهل السنة والجماعة.

الباب السادس

الإيمان بالقضاء والقدَر :

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : تعريف القضاء والقدر.

الفصل الثاني : أركان الإيمان بالقضاء والقدَر.

الفصل الثالث : أفعال العباد.

الفصل الرابع : الاحتجاج بالقضاء والقدَر.

الفصل الخامس : ثمار الإيمان بالقضاء والقدَر.

الفصل الأول

تعريف القضاء والقدر

أولاً : معنى القضاء والقدَر لغةً :

1- معنى القضاءِ لغةً : القضاءُ في اللغةِ يأتي لمعانٍ منها : الفصل، والحكم، وقد تكرر ذكرُ القضاء في ألأحاديث وأصلُه : القطع والفصل، يُقال : قضى يقضي قضاءً فهو قاضٍ : إذا حكم وفصل، وقضاءُ الشيء : إحكامُه وإمضاؤه والفراغُ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وهو على وجوه مرجعُها إلى انقضاء الشيءِ وتمامِه، وكلُّ ما أُحكِمَ عملُه، أو أُتِمَّ، أو أُدِّي، أو أُوجِبَ، أو عُلِم، أو نُفِّذ، أو أُمضي : فقد قُضي، وقد جاءت هذه الوجوهُ كلُّها في الأحاديث.

2- معنى القدر لغةً :

القدَرُ مصدر[1]، تقول : قدَرتُ الشيءَ – بتخفيف الدال وفتحِها – أقدِرُه – بالفتح والكسر – قدْراً وقدَراً : إذا أحطتَ بمقداره.

والقدَرُ في اللغة : القضاءُ والحكم، ومبلغُ الشيء، والتقدير : التروية والتفكُّر في تسوية الأمر.

---

(١) وقيل : القدَر – بالفتح اسمٌ، والقَدْرُ – بالسكون – مصدر. انظر : (لسان العرب) (5/ 74).

ثانياً : معنى القضاء والقدر اصطلاحاً :

هو ما سبق به العلمُ وجرى به القلمُ مما هو كائنٌ إلى الأبد، وأنه ﷻ قدَّر في الأزل مقاديرَ الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون، وعَلِمَ سبحانه أنها ستقع في أوقاتٍ معلومةٍ عنده تعالى، وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، فهي تقع على حسب ما قدَّرَها.

أو يُقال في تعريفه شرعاً : هو تقديرُ الله تعالى الأشياءَ في القِدَم، وعلمُه سبحانه أنها تقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصة، وكتابتُه سبحانه لذلك، ومشيئتُه له، ووقوعُها على حسب ما قدَّرَها وخَلْقِه لها.

وللعلماء في التفرقةِ بين (القضاء) و(القدَر) أقوال منها[1] :

الأول : القضاءُ هو العلمُ السابق الذي حكمَ الله تعالى به في الأزل، والقدَرُ: وقوعُ الخلق على وزن المقضيِّ السابق.

الثاني : عكس القول السابق، فالقدَرُ هو الحكمُ السابق، والقضاءُ هو الخلق.

وبناءً على القول الثاني يكون القضاءُ من الله تعالى أخص من القدَر؛ لأنه الفصلُ بين التقديرَين، فالقدَرُ هو التقدير، والقضاءُ هو الفصلُ والقطع.

وهذا القولُ أقرب إلى الصحة – على القولِ بالفرق – وتؤيدُ بعضُ النصوص من كتاب الله تعالى، قال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 21]**، وقال تعالى :**

---

(١) يُلاحَظ أنّ لفظ (القدَر) أكثر وروداً في الكتاب والسنةِ من لفظ (القضاء) وذلك عند الدلالةِ على وجوب الإيمان بهذا الركن من أركان الإيمان، مثل قولِه تعالى : ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر﴾، وفي حديث جبريل – عليه السلام – : «وتؤمن بالقدر خيره وشره».

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم : 71]، **وقال تعالى** : ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117].

وعلى هذا فالقضاءُ والقدَرُ أمران متلازمان، لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر؛ لأن أحدَهما بمنزلة الأساس، وهو القدَر، والآخرُ بمنزلة البناء، وهو القضاء.

على أنه عند إطلاق أحدِهما يشملُ الآخر، وهذا يوحي بأنه لا فرقَ بينهما في الاصطلاح، وهذا هو الراجح، والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني

أركان الإيمان بالقضاء والقدَر

الإيمانُ بالقضاء والقدَرِ يقوم على أربعة أركان، مَن أقَرَّ بها جميعاً فإن إيمانَه يكون مكتملاً، ومن انتقصَ واحداً منها أو أكثر : فقد اختلَّ إيمانُه بالقضاء والقدَر، وهذه الأركانُ الأربعةُ هي :

الأول : الإيمان بعلم الله تعالى الشامل المحيط.

الثاني : الإيمان بأن الله تعالى كتبَ في اللوح المحفوظ كلَّ شيء.

الركن الثالث : الإيمانُ بمشيئة الله تعالى الشاملة وقدرتِه النافذة.

الركن الرابع : الإيمانُ بأن الله خلقَ كلَّ شيء.

والأدلةُ من الكتاب والسنة على هذه الأصول الأربعةِ كثيرةٌ، ومنها :

الركن الأول : الإيمان بعلم الله تعالى الشامل المحيط :

كثر في كتاب الله تعالى وسنةِ رسولِه ﷺ تقريرُ هذا الأصل العظيم، فعلمُ الله تعالى محيطٌ بكل شيء، يَعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويَعلم الموجودَ والمعدوم، والممكنَ والمستحيل.

وهو عالِـمٌ بالعباد وآجالِهم وأرزاقِهم وأحوالِهم وحركاتِهم وسكناتِهم وشقاوتِهم وسعادتِهم، ومَن منهم من أهل الجنة، ومَن منهم من أهل النار، عالِـمٌ بكل ذلك قبل أن يخلقهم ويخلقَ السماوات والأرض.

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: 22]، وقال تعالى : ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: 12]، وقال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ

عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 3]، **وقال تعالى :** ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، **وقال تعالى :** ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: 32].

وقال تعالى مقرِّراً علمَه بما لم يكن لو كان كيف سيكون : ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، **فالله تعالى يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعةَ إلى الدنيا : أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبِهم وضلالِهم.**

وقال تعالى في الكفار الذين لا يطيقون سماعَ الهدى : ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23].

ومن علمه تعالى بما هو كائنٌ : علمُه بما كان الأطفالُ – الذين توفوا صغاراً – عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم، وفي الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : سئل النبيُّ ﷺ عن أولاد المشركين، فقال : «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[(١)].

الركن الثاني : الإيمان بأن الله تعالى كتبَ في اللوح المحفوظِ كلَّ شيء :

دلّت النصوصُ من الكتاب والسنةِ على أن الله تعالى كتبَ في اللوح المحفوظِ كلَّ شيء، ففي الحديثِ عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «كتبَ الله مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلق السماوات والأرضَ بخمسين ألف سنة، وعرشُه على الماء»[(٢)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 1383)، ومسلم (ح/ 2660).

(٢) رواه مسلم (ح/ 2653)، والترمذي (ح/ 2156).

ورواه الترمذيُّ بلفظ : «قدَّرَ اللهُ المقاديرَ قبل أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنة»[1].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ : «إن أولَ ما خلق اللهُ القلمَ فقال : اكتب، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب القدَرَ ما كان وما هو كائنٌ إلى الأبد

واللوحُ المحفوظُ الذي كتبَ الله تعالى فيه مقاديرَ الخلائق : سمّاه الله سبحانه بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين، وبأم الكتاب، وبالكتاب المسطور، قال تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: 70]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: 1-3]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4].

الركن الثالث : الإيمانُ بمشيئة الله تعالى الشاملة وقدرتِه النافذة :

هذا الأصلُ يقضي بالإيمان بمشيئة الله تعالى النافذة، وقدرتِه الشاملة، فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركةَ ولا سكونَ في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئتِه، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوصُ المصرِّحَةُ بهذا الأصل كثيرة، منها : قولُه تعالى : قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:

---

(١) سنن الترمذي (ح/ 2055)، قال الترمذي : « حديث حسن صحيح ».

(٢) رواه الترمذي (ح/ 2055)، وقال : « وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه »، والحديثُ صحيح من مجموع طرقه، والغرابةُ في الوجه الذي أوردَه الترمذيُّ في باب القدَر من سننه.

111]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ **[الأنعام: 112]**، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **[يس: 82]**، **وقال تعالى:** ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ **[الأنعام: 39]**.

الركن الرابع : الإيمان بأن الله تعالى خلقَ كلَّ شيء :

قررت النصوصُ أن الله تعالى خلقَ كلَّ شيء، فهو الذي خلقَ الخلقَ وكوَّنَهم وأوجدَهم، فهو الخالقُ وما سواه مخلوقٌ مربوب : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ **[الزمر: 62]**، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ **[يس: 81]**، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ **[الأنعام: 1]**، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ **[النساء: 1]**، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ **[الأنبياء: 33]**.

الفصل الثالث

أفعال العباد

سبق أن ذكرت أن مراتبَ القضاء والقدر وأركانها أربعة، وهي :

١ -العلم : وهو علمه تعالى بكل شيء مما كان وما سيكون.

٢ -والكتابة : وهي كتابته تبارك تعالى لكل شيءٍ في الأزل.

٣ -والمشيئة والإرادة : وهي أن كل شيء خاضعٌ لمشيئته وإرادته.

٤ -والخلق : وهو خلقه تعالى لكل شيءٍ ومنها أفعال العباد.

- أما المرتبتان الأوليان – العلم والكتابة – فلم ينكرهما إلا غلاة القدرية، الذين يقولون إنّ الأمر أنف، أي : لم يسبق لله تعالى فيه علم، وقد نشأوا في أواخر عهد الصحابة – رضي الله عنهم –، وتبرأ منهم من أدركهم من الصحابة رضي الله عنهم كما هو معروفٌ في قصة ابن عمر – رضي الله عنهما – في أول حديث في صحيح مسلم.

أما بقية الطوائف : فهم مُقِرُّون بهاتين المرتبتين.

- وأما المرتبتان الأخريان- المشيئة والخلق- فقد وقع فيهما الخلاف على قولين:

أحدهما : إنكار هاتين المرتبتين، وهذا مذهب المعتزلة ومن وافقهم، الذين ينكرون أن تكون مشيئة الله تعالى لها تعلق بأفعال العبادِ وطاعتِهم ومعاصيهم، ويزعمون أنه تعالى لا يخلق أفعال العباد، وإنما العبادُ هم الخالقون لأفعالهم.

والثاني : الإقرار بهاتين المرتبتين بإثبات الإرادة والمشيئة الشاملة، والقول بأن الله تعالى خالقُ كلِّ شيء، ومن ذلك أفعال العباد، وهذا قول جمهور الأمة، من أهل السنة وغيرهم حتى الجهمية – ويُسمَّون جبريةً في باب القدر – ولكنهم يُخالفون

أهلَ السنة بالغلوِّ فيه.

ولذا فالخلافُ استقرَّ حول مرتَبَتَيْ المشيئة والخلق، وهل يُثبَتان للربِّ تعالى أو للعبد، أو لَهما معاً؟ وتحديد العلاقة بين مشيئة الخالق ومشيئة العباد، وبين خلق الله تعالى فعلِ العبدِ وقدرتِه.

والأقوالُ في هذه المسألة أربعة :

القولُ الأول : إنّ العباد مجبورون على أعمالهم، لا قدرة لهم ولا إرادة ولا اختيار، والله تعالى وحده هو خالق أفعال العباد، وأعمالُهم إنما تُنسَب إليهم مجازاً، وحركتُهم واختيارُهم كورق الشجر تُحَرِّكُه الرياح، وكحركة الشمس والقمر والأفلاك، وهذا مذهب الجبرية، وأشهر فرقهم : الجهمية.

القول الثاني : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى، وإنما العباد هم الخالقون لها، ولهم إرادة وقدرة مستقلة عن إرادة الله تعالى وقدرتِه، فأفعالُهم لا فاعل لها ولا مُحدِثَ سواهم، ومن قال : إن الله تعالى خالقها ومحدثها : فهو مخطئ عندهم، وهذا قول المعتزلة.

القول الثالث :قولُ بعض المتكلمين. وقد وافقوا أهلُ السنة على أن الله تعالى خالقُ أفعال العباد، خلافاً للمعتزلة، كما وافقوا أهلَ السنة على إثبات القدرة للعبد، خلافاً للجبرية...

ولكنهم مع اعترافِهم بذلك كلِّه؛ قالوا إنه ليس لقدرتهم تأثير فيها، وهي كسبٌ للعباد، وعلى ذلك الكسب يترتَّبُ الثواب والعقاب.

القول الرابع : قولُ أهل السنة والجماعة : وهو الإقرار بالمراتب الأربعة للقضاء والقدر، الثابتة بنصوص الكتاب والسنة، وهي : العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق،

وأفعالُ العباد داخلةٌ في المرتبة الرابعة، ولذلك فهم يقولون فيها: إن الله تعالى خلق أفعالَ العباد كلَّها، والعبادُ فاعلون حقيقة، ولهم قدرةٌ حقيقيةٌ على أعمالهم، ولهم إرادة، ولكنها خاضعةٌ لمشيئة الله تعالى الكونية، فلا تخرج عنها، فالله تعالى خالقُهم وخالقُ قدرتِهم وإرادتِهم.

فتلك المراتبُ الأربعةُ شاملةٌ لما يكون من الله تعالى نفسِه، ولما يكون من العباد، فكلُّ ما يقوم به العبادُ من أقوال أو أفعال أو تروك : فهي معلومة لله تعالى، مكتوبةٌ عنده، والله تعالى قد شاءَها وخلقَها، ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى جعلَ للعبد اختياراً وقدرةً بهما يكون الفعل.

والدليل على أن فعلَ العبد باختياره وقدرتِه أمور :

الأول : قولُه تعالى : ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، وقولُه تعالى : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: 46]، فأثبتَ للعبد إتياناً بمشيئتِه، وإعداداً بإرادتِه.

الثاني : توجيهُ الأمر والنهي إلى العبد، ولو لم يكن له اختيار وقدرة : لكان توجيه ذلك إليه من التكليف بما لا يطاق، وهو أمر تأباه حكمةُ الله تعالى ورحمتُه وخبرُه الصادقُ في قوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

الثالث : مدحُ المحسن على إحسانه، وذمُّ المسيء على إساءته، وإثابةُ كلٍّ منهما بما يستحق؛ ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره : لكان مدحُ المحسن عبثاً، وعقوبةُ المسيء ظلماً، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن العبث والظلم.

الرابع : أن الله تعالى أرسلَ الرسلَ ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، ولولا أنّ فعلَ العبد يقعُ بإرادتِه واختياره : ما بطلت حجتُه بإرسال الرسل.

الخامس : أن كلَّ فاعل يحسّ أنه يفعل الشيءَ أو يتركه بدون أي شعور بإكراه، فهو يقوم ويقعد ويدخل ويخرج ويسافر ويقيم بمحض إرادته، ولا يشعر بأن أحدا يكرهه على ذلك، بل يفرِّق تفريقا واقعيا بين أن يفعلَ الشيءَ باختياره وبين أن يُكرِهَه عليه مُكرِهٌ.

وكذلك فرَّقَ الشرعُ بينهما تفريقا حكيما؛ فلم يؤاخذ الفاعلَ بما فعله مكرَهاً عليه فيما يتعلق بحق الله تعالى.

الفصل الرابع

الاحتجاج بالقضاء والقدر على المعاصي

يعتقد أهلُ السنة والجماعة أنه لا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر على المعاصي؛ لأنه لا حجة للعبد العاصي في القضاء والقدر؛ لأن العاصي يُقدم على المعصية باختياره من غير أن يعلم أن الله تعالى قضاها وقدرها عليه؛ إذ لا يعلم أحد قضاء الله وقدره إلا بعد وقوع مقدوره ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: 34]، فكيف يصح الاحتجاجُ بحجةٍ لا يعلمها المحتجُّ بها حين إقدامه على ما اعتذر بها عنه.

وقد أبطلَ الله ﷻ هذه الحجةَ بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148].

ويقال للعاصي المحتج بالقضاء والقدر: لماذا لم تُقدِم على الطاعة مقدراً أن الله تعالى قد كتبها لك؛ فإنه لا فرق بينها وبين المعصية في الجهل بالمقضيِّ والمقدورِ قبل صدور الفعل منك؛ ولهذا لما أخبر النبي ﷺ الصحابة – رضي الله عنهم – بأنه «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعَدُه من النارِ ومقعدُه من الجنّة»، قالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ قال ﷺ: «اعمَلوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له»[1]، وفي رواية مسلم قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[2].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 4949)، ومواضع أخرى، ومسلم (ح/ 2646)، واللفظُ للبخاري.

(٢) (ح/ 2647).

ويقال للمحتج بالقدر : إذا كان القضاء والقدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس؛ فإنهم كلهم مشتركون في القضاء والقدر، فحينئذ يلزم أن لا ينكر على من يظلمه، ويشتمه، ويأخذ ماله، ويفسد حريمه، ويضرب عنقه، ويهلكُ الحرث والنسل، وهؤلاء جميعا كذابون متناقضون؛ فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم قد يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه.

فإن كان القضاء والقدر حجةً لمن فعل المحرمات وتركَ الواجبات : لزمهم أن لا يذموا أحداً، ولا يبغضوا أحداً، ولا يقولون في أحد : إنه ظالم، ولو فعل ما فعل، ومعلومٌ أن هذا لا يمكن أحداً فعلُه، ولو فعل الناس هذا : لهلك العالم، فتبين أن قول المحتج بالقضاء والقدر فاسد في العقل، كما أنه كفر في الشرع.

وعند الاستقراء تجد أن المحتجين بالقضاء والقدر يحتجون به في ترك حق ربهم تبارك وتعالى ومخالفة أمره، لا في ترك ما يرونه حقا لهم، ولا مخالفة أمرهم.

متى يسوغ الاحتجاج بالقضاء والقدر؟

يسوغ الاحتجاج بالقضاء والقدر عند المصائب التي تحلُّ بالإنسان، كالفقر، والمرض، وفقد القريب، فهذا من تمام الرضا بالله تعالى ربا، فالاحتجاج يكون على المصائب، لا المعائب، فالسعيد يستغفر من المعائب ويصبر على المصائب، كما قال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: 55]، والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

فلو أن رجلا قتل أخر عن طريق الخطأ، ثم لامه مَن لامه، واحتج القاتلُ بالقضاء والقدر : لكان احتجاجُه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يُؤاخَذ، ولو قتل

رجلٌ رجلاً عن طريق العمد، ثم وُبِّخَ القاتل على ذلك، ثم احتج بالقضاء والقدر: لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً.

ولهذا حجَّ أدمُ موسى – عليهما السلام – كما في قوله ﷺ عن محاجَّتِهما: «احتجَّ أدم موسى، فقال له موسى: أنت آدمُ الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قُدِّرَ عليَّ قبل أن أخلق؟ فحج أدم موسى»[1].

فآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر على الذنب، كما يظن ذلك بعض الطوائف، وموسى عليه السلام لم يَلُمْ آدمَ عليه السلام على الذنب؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب، فاجتباه ربه وتاب عليه وهداه، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ولو أن موسى عليه السلام لام آدمَ عليه السلام على الذنب لأجابه: إنني أذنبت فتبت، فتاب الله تعالى علي، ولقال له: أنت يا موسى عليه السلام قتلت نفسا، وألقيت الألواح، إلى غير ذلك، وإنما احتج موسى عليه السلام بالمصيبة، فحجَّه آدمُ عليه السلام بالقضاء والقدر.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر (ح/ 2652).

الفصل الخامس

من ثمار الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر يُثمر فوائد عظيمة وثمرات جليلة، منها :

١ -الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله تعالى وقدره.

٢ -راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم العبد أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة : ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب ﷻ وقَدَرِه، فلا أحد أطيب عيشاً وأهدأ نفسا وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

٣ -طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمةٌ من الله تعالى بما قضاه وقدَّره من أسباب الخير والنجاح، فيشكر الله تعالى على ذلك ويَدَعُ الإعجاب.

٤ -طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه؛ لأن ذلك بقضاء الله تعالى وقدَرِه الذي له ملك السماوات والأرض، وهو كائنٌ لا محالة، فيصبر على ذلك، ويحتسب الأجر، وإلى هذا يشيرُ الله تعالى بقوله : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22].

٥ -ومن آثار الإيمان بالقضاء والقدر على الفرد والمجتمع : أن الإيمان به من أكبر الدواعي التي تدعو إلى العمل والنشاط والسعي بما يرضي الله تعالى في هذه الحياة، والإيمانُ بالقضاء والقدر من أقوى الحوافز للمؤمن لكي يعملَ ويُقدِم على عظائم الأمور بِثَبَاتٍ وعزمٍ ويقين.

وأما دعوى أن الإيمان بالقضاء والقدر يدعو إلى الكسل والتواكل في حياة المسلمين : فهذا مما روَّجه ويروِّجُه الملحدون، فهم يقولون : إن عقيدة القضاء والقدر تدعو الإنسان إلى التعلل بالمكتوب، فيكسل ولا يقوم بالواجب الملقى عليه، ويضربون مثلاً لذلك بواقع الأمة الإسلامية المتخلف، والحقيقة أن واقع الأمة الإسلامية المتردي إنما نشأ ووُجِد لأسباب عديدة داخلية وخارجية، ومن الأسباب الداخلية : جهلُ كثير من المسلمين بحقيقة الإسلام، وعدمُ تفاعلهم معه التفاعلَ الإيماني الصادق الذي غيّر واقعَ الأرض أول مرة.

ومن جوانب الجهل بحقيقة الإيمان : الجهلُ بعقيدة القضاء والقدر، وذلك حين فهموا أن معنى القضاء والقدر هو التسليمُ لما يقضيه ويقدِّرُه الله تعالى بالقعود عن تغيير ما أصاب الإنسانَ من فقر أو مرض أو جهل؛ بحجة أن كل ذلك مقدرٌ من عند الله فلا ينبغي مقاومتُه، وإنما يجب الاستسلام له فقط، وكذلك حين فهموا أنه لا حاجة إلى الكَدِّ والعمل في طلب الرزق محتجين بأن الرزق سيأتي صاحبَه، ولا ضرورة للنشاط والحركة.

فإذا وُجد في المسلمين من يفهم هذا الفهم المنحرف في باب القضاء والقدر والأخذ بالأسباب : فليس عيباً في الإسلام، وإنما هو عيبٌ في المسلمين الذين يفهمون هذا الفهم؛ لأن الكتاب والسنة مملوءان بالأوامر والتوجيهات للإنسان أن يعمل الصالحات، ويطلب الرزق، ويعمر الكون، وقد طبَّق هذه التوجيهات صحابةُ رسول الله ﷺ – ورضي عنهم – فعملوا وكدّوا وأتعبوا أنفسهم في ابتغاء مرضاة الله تعالى، فجاهدوا وصبروا، وفتحوا البلاد وأصلحوا العباد، وأقاموا حكمَ الله تعالى في الأرض، وما وُجِد فيهم من يقعد به إيمانُه بالقضاء والقدر عن

ذلك، بل كان القضاءُ والقدَرُ أكبرَ داع وأكبرَ عاملٍ لهم ليقوموا بما قاموا به — رضوان الله تعالى عليهم -.

فالمؤمنون مأمورون بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، والإيمان بأن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب، وهو الذي خلق النتائج، ويحرم على المسلم ترك الأخذ بالأسباب، ولو ترك إنسانٌ السعيَ في طلب الرزق : كان آثما، مع أن الأرزاق بيد الله تعالى، والرسول ﷺ لما سئل : أرأيت رُقىً نسترقي بها، وتُقىً نتقي بها، وأدوية نتداوى بها: هل تردُّ من قدَر الله شيئاً؟ قال : «هي من قدر الله»[1].

فالاعتماد على الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً : نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها : قدحٌ في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبُه معتمدا على الله تعالى، لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورةً له وهو مأمور بها : فعَلَها مع التوكل على الله تعالى، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جُنّةَ الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أُمِر به من الجهاد.

ومن تركَ الأسبابَ المأمورَ بها : فهو عاجزٌ مفرِّط مذموم، وفي الحديث — فيما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من

---

(١) رواه الترمذي (ح/ 2065) في كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية، وفي القدر (ح/ 2148)، وقال : هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (ح/ 3437) في كتاب الطب.

المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُل : قدر الله وما شاء فعل؛ فإنّ (لو) تفتح عملَ الشيطان»[١].

«وقد ظن بعضُ الناس أن التوكل ينافي الاكتسابَ وتعاطيَ الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدورةً فلا حاجة إلى الأسباب، وهذا فاسد؛ فإن الاكتساب منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، وقد كان النبي ﷺ - أفضل المتوكلين - يلبَس لأمةَ الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب»[٢].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة رضي الله عنه لما جاء الخبرُ بانتشار الوباء في الشام، ورأى عمر الرجوع، فقال له أبو عبيدة : «أفراراً من قدَر الله؟! »، فقال عمر: «لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة ! نعم، نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان : إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتَها بقدَر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟»[٣].

هكذا فهم الصحابةُ - رضي الله عنهم - العلاقةَ بين الإيمان بالقضاء والقدر والأخذِ بالأسباب، وأن الأخذَ بالأسباب داخلٌ في معنى الإيمان بالقضاء والقدر ولا ينافيه.

---

(١) رواه مسلم (ح/ 2664) في كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (2/ 411- 412).

(٣) قصة عمر هذه أخرجها الشيخان، انظر : صحيح البخاري (ح/ 5729)، وصحيح مسلم (ح/ 2219).

الباب السابع
في نواقض الإيمان ومُنقِصَاتِه

وفيه تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد : في تعريف نواقض الإيمان ومنقصاتِه، وبيان منهج أهل السنة والجماعة في باب نواقض الإيمان.

الفصل الأول : في الشرك، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في الشرك الأكبر.

المبحث الثاني : وسائل الشرك الأكبر.

المبحث الثالث : في الشرك الأصغر.

الفصل الثاني : الكفر، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : بيان حقيقة الكفر.

المبحث الثاني : أقسام الكفر.

المبحث الثالث : ضوابط تكفير المعين.

الفصل الثالث : النفاق.

الفصل الرابع : البدعة، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف البدعة.

المبحث الثاني : أنواع البدع.

المبحث الثالث : التحذير من البدع.

التمهيد

في التعريف بنواقض الإيمان ومنقصاته، ومنهج أهل السنة والجماعة فيها

أولاً : التعريف بنواقض الإيمان ومُنقِصَاتِه :

النواقض من النقض، وهو في اللغة: ضد الإبرام، وهو إفسادُ ما أبرمته من العقد أو البناء أو العهد.

والتعريف الاصطلاحي لنواقض الإيمان لا يخرج عن معنى النقض اللغوي، وهو أنها : اعتقادات أو أقوال أو أفعال تزيل الإيمانَ وتقطعُه بالكلية.

وبعبارة أخرى : هي الأمور التي إذا وجدت عند العبد : خرج من دين الله بالكلية، وأصبح بسببها كافراً أو مرتداً عن دين الإسلام، وهي كثيرة، تجتمع في الشرك الأكبر، والكفر الأكبر، والنفاق الأكبر (الاعتقادي).

والفقهاءُ – رحمهم الله تعالى – يوردون نواقض الإيمان في باب الردة، باعتبارها تنقض الإيمانَ، ويُعرفون الردة بتعريفاتٍ عديدة منها : قطعُ الإسلام بنية، أو قول، أو فعل، سواء قاله استهزاءً، أو عناداً، أو اعتقاداً [(١)].

أما مُنقِصَاتُ الإيمان : فهي الأمورُ التي تنافي كمالَ التوحيد والإيمان، ولا تنافيه بالكلية، فإذا وُجِدت عند المسلم : قَدَحَت في إيمانه ونقَصَته، ولم يخرج من دين الإسلام، وهي المعاصي التي لا تصل إلى درجة الشرك الأكبر أو الكفر الأكبر

---

(١) منهاج الطالبين للنووي (3/ 198)، وانظر: روضة الطالبين له (ص/ 1725).

أو النفاق الأكبر، وعلى رأسها : وسائلُ الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، والكفر الأصغر، والنفاق الأصغر، والبدعة.

ثانياً : منهج أهل السنة والجماعة في باب نواقض الإيمان :

الناسُ في باب نواقض الإيمان ثلاثة أقسام : طرفان ووسط :

الطرف الأول : الذين يغالون في التكفير والحكم على الناس بالكفر، ويكفِّرون الناسَ من غير رويّةٍ أو فقهٍ أو معرفةٍ جيدةٍ للإسلام، وهذا مبدأ الخوارج الذين خرجوا في عهد النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي العهود المتأخرة، وهؤلاء يكفرون المسلمين ويغالون في الكفر، فكل مَن خالفَهم كفروه واستحلوا دمَه.

وسببُ هذا الانحـراف عندهم : أنهم يأخذون النصوصَ التي تدل بظاهرها على الكفر أو على الشرك، يأخذونها على ظاهرها دون أن يجمعوا بينها وبين النصوص الأخرى التي تفسرها وتوضحها، فإن الكفرَ – كما سيأتي توضيحُه – ينقسم إلى قسمين : أكبر، وأصغر، وكذلك الشرك، والكفر الأكبر والشرك الأكبر يُخرجان من الدين وينقضان الإسلام، أما الكفر الأصغر والشرك الأصغر : فلا يُخرجان من الدين، لكنهما ينقصان الإسلام والإيمان.

والخوارج لا يفرقون بين هذا وذاك، فليس عندهم كفرٌ أصغر ولا شرك أصغر، بل الكفر والشرك عندهم شيء واحد، وهو الخروج من الدين، وهم أخذوا بظواهر بعض النصوص وتركوا النصوصَ الأخرى التي تفصِّل هذه الأمور وتقسمها إلى قسمين، وذلك لعدم فقههم وعدم تمكنهم من العلم.

الطرف الثاني : المرجئة الذين يقولون : الإيمان بالقلب، ولم يدخلوا فيه العمل، فلو عمِلَ ما عمل : فإنه لا يكفر، ويقولون : لا يضر مع الإيمان معصية، ولا ينفع مع الكفر طاعة، وأخذوا بنصوص الوعد التي فيها وعدُ الله تعالى بالمغفرة والرحمة، ولم يجمعوا بينها وبين نصوص الوعيد التي فيها التحذير من الكفر والشرك والذنوب والمعاصي.

وهؤلاء على النقيض من الخوارج، أخذوا بنصوص الوعد، واعتمدوا على الرجاء فقط، كما أن الخوارج أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوصَ الوعد والرحمة والرجاء.

الطرف الثالث : أهل السنة والجماعة، وهم وسطٌ بين المذهبين : مذهبِ الخوارج ومذهبِ المرجئة، وهم يجمعون بين النصوص ويقولون : إن الكفرَ والشركَ في القرآن والسنة ينقسمان إلى قسمين : أكبر وأصغر، والذنوب التي دون الكفر والشرك لا يكفر صاحبها.

فالكفر الأكبر والشرك الأكبر يخرجان من الملة، والشرك الأصغر والكفر الأصغر لا يخرجان من الملةِ خلافاً للخوارج، ولكنهما ينقصان الإيمانَ خلافاً للمرجئة، فهم في طرفي نقيض، وأهلُ السنة والجماعة وسط – ولله الحمد –، جمعوا بين نصوص الوعد والوعيد، وجمعوا بين الخوف والرجاء، فلم يأخذوا الرجاءَ فقط، كما أخذته المرجئة، ولم يأخذوا الخوفَ فقط، كما أخذته الخوارج.

- فمَن عبد الله بالخوف فقط : فهو خارجي.
- ومَن عبد الله بالرجاء فقط : فهو مرجئ.
- ومَن عبد الله بالحب فقط : فهو من منحرفي الزهاد.

- ومَن عبدَ الله بالخوف والرجاء والحب والرغبة : فهو موحِّدٌ سني.

فمعرفةُ نواقض الإيمان لها أهمية كبرى حتى يُحافظَ الإنسانُ على إيمانه، ولا يُعَرِّضَه للنواقض التي تُناقِضُ أصلَه، أو لِما يُناقِضُ كمالَه، وحتى لا يكون الإنسان مع الخوارج، ولا يكون مع المرجئة، وإنما يكون مع أهل السنة والجماعة.

الفصل الأول : في الشرك :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في الشرك الأكبر :

إنّ أعظمَ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ من عند الله تعالى، وأولَ ما أمرَ الله تعالى به: عبادة الله وحده لا شريكَ له، وإخلاصُ الدين له وحده، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: 1-3]، ومعنى قولِه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: عظِّم ربَّكَ بالتوحيد، وإخلاصِ العبادة له وحده لا شريكَ له، وهذا قبل الأمر بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغير ذلك من شعائرِ الإسلام.

ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي: أنذر عن الشرك في عبادة الله تعالى وحده لا شريكَ له، وهذا قبل الإنذارِ عن الزنا، والسرقة، والربا، وظلم الناس، وغيرِ ذلك من الذنوب الكبار.

وهذا الأصلُ هو أعظمُ أصول الدين، وأفرضُها، ولأجله خلقَ الله الخلق، ولأجله أرسلَ الرسل، وأنزلَ الكتب، ولأجله تفرقَ الناسُ بين مسلمٍ وكافر.

وقد حصل عند الكثيرين خلط في معنى التوحيد، وتبعاً لذلك وقع خلط في معنى الشرك أيضاً، ولَمَّا ترتّب على خلطهم الأول تقرُّبُهم بما يظنون أنه التوحيد الذي بعثت به الرسل: ترتّبَ على خلطهم الثاني اجتنابُهم ما يظنونه الشرك الذي حذّروا منه.

ومن هنا وقع في الشرك مَن لم يستوعب معناه، ظانًّا أن ما وقع فيه من الشرك لا يُعدُّ شركاً.

ومعرفةُ معنى الشرك وحقيقتِه متوقفة على معرفة التوحيد الذي هو ضده، كما أن معرفة الشرك الذي وقعت فيه الأممُ التي أرسلت إليهم الرسل يُعين على تحديد حقيقة التوحيد الذي جاءت الرسلُ ببيانه، لذا يحسن ههنا الحديثُ عن الشرك بإيجاز.

- تعريف الشرك :

لغة : الشركُ في اللغة يدل على المقارنة، التي هي ضد الانفراد، وهو أن يكون الشيءُ بين اثنين، لا ينفردُ به أحدُهما، يُقال : لا تُشرك بالله تعالى، أي : لا تعدل به غيرَه فتجعلَه شريكاً له، فمَن عدلَ بالله تعالى أحداً من خلقه : فقد جعله شريكاً.

اصطلاحاً : الشركُ في الاصطلاح أن يتخذ العبدُ لله تعالى نِداً يسوِّيه به في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائِه وصفاتِه.

- حكمُ الشرك : الشركُ أعظمُ ذنبٍ عصي الله تعالى به، فهو أكبر الكبائر، وأعظم الظلم؛ لأن الشركَ صرفُ خالص حق الله تعالى – وهو العبادة – لغيره، أو وصفُ أحدٍ من خلقه بشيءٍ من صفاته التي اختصَّ بهاﷻ ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، ولذلك رتّبَ الشرعُ عليه آثاراً وعقوباتٍ عظيمة، أهمها :

١ -أن الله تعالى لا يغفره إذا مات صاحبُه ولم يتب منه، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، هذا مع أنه سبحانه كتبَ على نفسه الرحمة.

٢ -أن صاحبَه خارج من ملة الإسلام.

٣ -أن الله تعالى لا يقبل من المشرك عملاً، وما عملَه من أعمالٍ سابقة تكون هباءً منثوراً، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

٤ -أن دخول الجنة عليه حرام، وهو مخلد في نار الجحيم – نسأل الله تعالى السلامةَ والعافية – كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

- أقسام الشرك :

الشرك على قسمين : شرك أكبر، وشرك أصغر.

وضابطُ الأول : أن يتخذ العبدُ لله تعالى نِداً يحبه كمحبته، أو يرجوه أو يخافه أو يدعوه أو يصرف له نوعاً من العبادة الظاهرةِ أو الباطنة، وهذا شركٌ مخرج من دائرة الإسلام وملّتِه، وصاحبُه متوعَّدٌ أشد الوعيد إن أصرّ عليه ولقي الله به.

وضابط الثاني : أنه كل وسيلةٍ يُتَوَسَّلُ بها ويُتَوَصَّلُ من طريقها إلى الشركِ بشرط أن لا يبلغ ذلك مرتبةَ العبادة.

وهو غيرُ مخرجٍ من الملة، ويُخاف على صاحبه؛ إذ هو تحت مشيئة الله تعالى كسائر الذنوب والمعاصي والكبائر، ومن أمثلته : الحلف بغير الله تعالى، والرياء، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، وسيأتي بيان بعضها في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى.

- أقسام الشرك الأكبر :

للشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي :

القسم الأول : الشرك في الربوبية : وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيباً من الملك، أو التدبير، أو الخلق، أو الرزق الاستقلالي.

ومن صور الشرك في هذا القسم :

١ -شرك النصارى الذين يقولون : الله ثالث ثلاثة، وشركُ المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور – وهو عندهم الإله المحمود – وحوادث الشر إلى الظلمة – وهو عندهم الإلهُ المذموم –.

٢ -شرك القدرية الذين يزعمون أن الإنسانَ يخلق أفعالَه.

٣ -شركُ كثيرٍ ممن يعبدون القبور، الذين يعتقدون أن أرواح الأموات تتصرف بعد الموت، فتقضي الحاجات وتفرّج الكربات، أو يعتقدون أن البعضَ يتصرف في الكون، أو يُغيث مَن استغاثَ به ولو مع غيبتِه عنه.

٤ -الاستسقاء بالنجوم : وذلك باعتقاد أنها مصدر السقيا، وأنها تنزل الغيث بدون مشيئة الله تعالى، وأعظم من ذلك أن يعتقد أنها تتصرف في الكون بالخلق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو بالشفاء أو المرض أو الربح أو الخسارة؛ فهذا كله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82]، والمعنى : تجعلون شكركم لله تعالى على ما رزقكم الله تعالى من الغيث والمطر أنكم تكذبون، أي : تنسبونه إلى غيره.

القسم الثاني : الشرك في الألوهية :

وهو اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد، أو صرف شيء من العبادة لغيره.

وأنواعُه ثلاثة، وهي :

النوع الأول : اعتقاد شريكٍ لله تعالى في الألوهية، فمن اعتقد أن غيرَ الله يستحق العبادةَ مع الله، أو يستحق أن يُصرف له أي نوع من أنواع العبادة : فهو مشركٌ في الألوهية.

النوع الثاني : صرف شيءٍ من العبادات المحضة لغير الله تعالى :

فالعبادات المحضة بأنواعها : القلبية، والقولية، والعملية، والمالية : حق لله تعالى لا يجوز أن تصرف لغيره، فمَن صرف شيئاً منها لغير الله تعالى : فقد وقع في الشرك الأكبر.

والشركُ بصرف شيء من العبادة لغير الله تعالى له صور كثيرة يمكن حصرها في الأمرين الآتيين :

الأمر الأول : الشرك في دعاء المسألة، ودعاءُ المسألةِ أن يطلبَ العبدُ من ربه جلبَ مرغوب، أو دفع مرهوب.

ويدخل في دعاء المسألة : الاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستجارة.

الأمر الثاني : الشرك في دعاء العبادة :

ودعاء العبادة هو: عبادة الله تعالى بأنواع العبادات القلبية، والقولية، والفعلية، كالمحبة، والرجاء، والصلاة، والصيام، والذبح، وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، وغيرها.

وسمي هذا النوع (دعاء) باعتبار أن العابد لله تعالى بهذه العبادات طالبٌ وسائلٌ لله تعالى في المعنى؛ لأنه إنما فعل هذه العبادات رجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فهو داعٍ لله تعالى بلسان حاله، لا بلسان مقاله.

ويدخل في هذا النوع : شرك النية والإرادة والقصد، والشرك في الخوف، والشرك في المحبة، والشرك في الرجاء، والشرك في الصلاة والسجود والركوع، والشرك في الذبح، والشرك في النذر والزكاة والصدقة، والشرك في الصيام والحج،

والشرك في الطواف، وغيرها.

النوع الثالث : الشرك في الحكم :

والشرك في الحكم له صور كثيرة، منها :

١ -أن يعتقد أحدٌ أن حكم غير الله تعالى أفضل من حكم الله تعالى أو مثلُه، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأنّ صاحبَه مكذبٌ للقرآن الكريم.

٢ -أن يعتقد أحدٌ جواز الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وهذا شرك أكبر أيضاً.

٣ -أن يضع تشريعاً أو قانوناً مخالفاً لما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ويحكم به، معتقداً جوازَ الحكم بهذا القانون، أو معتقداً أن هذا القانون خير من حكم الله أو مثله، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

٤ -أن يطيع مَن يحكم بغير شرع الله تعالى عن رضى، مقدماً لقولهم على شرع الله، ساخطاً لحكم الله تعالى، أو معتقداً جوازَ الحكم بغيره، أو معتقداً أن هذا الحكم أو القانونَ أفضل من حكم الله تعالى أو مثله.

ومثل هؤلاء من يتبع أو يتحاكم إلى الأعراف القبلية المخالفة لحكم الله تعالى، مع علمه بمخالفتها للشرع، معتقداً جواز الحكم بها، أو أنها أفضل من الشرع أو مثله، فهذا كله شرك أكبر مخرج من الملة.

والدليل على أن هذا كله شرك قولُه تعالى : ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، وقولُه تعالى : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم ؟ فقال ﷺ: «أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويُحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» قال : قلت : بلى، فقال : «فتلك عبادتُهم»[١].

فتضمَّنَ الحديث أن طاعتَهم في مخالفة الشرع عبادة لهم، وذكر الله تعالى في آخر الآية أن ذلك شرك.

القسم الثالث : الشرك في الأسماء والصفات :

وهو أن يجعل لله تعالى مماثلاً في شيءٍ من الأسماء أو الصفات، أو يصفَه تعالى بشيءٍ من صفات خلقه.

فمَن سمّى غيرَ الله تعالى باسمٍ من أسماء الله تعالى، معتقداً اتصافَ هذا المخلوق بما دلَّ عليه هذا الاسمُ مما اختص الله تعالى به، أو وصفَه بصفةٍ من صفات الله تعالى الخاصةِ به : فهو مشركٌ في الأسماء والصفات، كتسمية المشركين آلهتَهم بأسماء الله تعالى، كـ«اللات» من الإله، و«العُزّى» من العزيز، و«مناة» من المناة.

وكذلك مَن وصف الله تعالى بشيءٍ من صفات المخلوقين : فهو مشركٌ في الصفات.

ومن صور هذا الشرك : الشركُ بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غيرَ الله تعالى يعلم الغيب، فكلُّ ما لم يطلع عليه الخلقُ ولم يعلموا به بأحد الحواس الخمس: فهو من علم الغيب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) رواه الترمذي (3095)، والطبراني في الكبير (17/ برقم 218، 219)، وحسنه الشيخ الألباني في (صحيح سنن الترمذي) (3/ 247).

ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: 65]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: 20]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]، وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: 188]، وقال لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: 50].

المبحث الثاني : وسائل الشرك الأكبر :

لما كان الشركُ الأكبرُ أعظمَ ذنبٍ عصي الله تعالى به : حرّم الله ورسولُه ﷺ كلَّ قولٍ أو فعلٍ يؤدي إليه، أو يكون سبباً في وقوع المسلم فيه.

فالرسولُ ﷺ كان حريصاً على هداية أمته وسلامتِهم من كل ما يكون سبباً في هلاكهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وقال أبو ذر رضي الله عنه : تركَنا رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يقلبُ جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً. قال : وقال رسولُ الله ﷺ : «ما بقي شيءٌ يقرِّبُ من الجنة ويباعد من النار إلا بُيِّنَ لكم»(١).

وثبت عنه ﷺ أنه قال : «إنما مَثَلي ومثلُ الناس كمثَل رجل استوقدَ ناراً، فلما أضاءت ما حوله : جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجلُ يحجزهن، ويغلبنه، فيقتحمن فيها؛ فأنا آخذُ بحُجَزِكم عن النار : هلمَّ عن النار، هلمَّ عن النار، فتغلبوني تقحَّمون فيها»(٢).

فالرسولُ ﷺ حمى جنابَ التوحيد من كل ما يهدمه أو يُنقصه حمايةً محكَمة، وسَدَّ كلَّ طريق يؤدي إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأن من سارَ على الدرب وصل؛ ولأن الشيطان يُزيِّنُ للإنسان أعمالَ السوء، ويتدرج به من السيء إلى الأسوأ شيئاً فشيئاً حتى يُخرجه من دائرة الإسلام بالكلية – إن استطاع إلى ذلك سبيلاً – فمَن انقادَ له

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (ح/ 1647) بإسنادٍ حسن.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (ح/ 6483)، ومسلم (ح/ 2284) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

واتبع خطواتِه : خسر الدنيا والآخرة.

ولذلك لما عصى كثيرٌ من المسلمين نبيَّهم ﷺ بفعل بعض الأمور التي نهاهم عنهم وحذَّرهم منها، واتبعوا خطواتِ الشيطان الذي زيّن لهم الباطل، ودعاهم إليه حتى ظنوا أنهم على الحق مع مخالفتهم الصريحةِ للنبيﷺ : أدّى بهم ذلك إلى الوقوع في الشرك الأكبر المخرِج من الملة.

وسأبيّن – إن شاء الله تعالى – أهمَّ الوسائل التي توصلُ إلى الشرك، وتوقع المسلمَ فيه، والتي حذّر منها النبيُّﷺ ، فمنها :

أولاً : الغلو في الصالحين :

لقد حذّر النبيُّ ﷺ من الغلو على وجه العموم، فقالﷺ : «إياكم والغلو؛ فإنما أهلكَ مَن كان قبلكم الغلو»[1].

أما الغلو في الصالحين : فقد ثبتَ أنه كان أول وأعظم سبب أوقعَ بني آدم في الشرك الأكبر، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس– رضي الله عنهما – أنه أخبرَ عن أصنام قوم نوح أنها صارت في العرب، ثم قال :«أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ، فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم أن أنصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً[2]، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك،

---

(١) رواه الإمام أحمد (1/ 215)، والنسائي (5/ 268)، وابن ماجه (ح/ 3029)، وابن حبان (ح/ 3871) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح.

(٢) الأنصاب : جمع نصب، وهو كل ما يُنصب من عصا أو حجر أو غيرهما لغرضٍ ما، وكانت للعرب في الجاهلية أنصاب، وهي أحجار كانوا ينصبونها ويذبحون عليها، فتحمر بالدم، وقيل : إنها أحجار كانوا ينصبونها ويتخذونها صنماً يعبدونه.

ونُسخ العلم[1] : عُبِدت»[2].

ولذلك ينبغي للمسلم أن يَحذَرَ من التساهل في هذا الباب؛ لئلا يؤدي به أو يؤدي بمن يراه أو يقلده أو يأتي بعده إلى الوقوع في الشرك الأكبر.

ومن أنواع الغلو المحرم في حق الصالحين والذي يوصل إلى الشرك :

أولاً : المبالغة في مدحهم : كما يفعلُه كثيرٌ من غلاة أهل البدع، وقد أدت هذه المبالغة بكثيرٍ منهم في آخر الأمر إلى الوقوع في الشرك الأكبر في الربوبية، وذلك باعتقاد أن بعض الأولياء يتصرفون في الكون.

وقد حذّر النبيُّ ﷺ من الغلو في مدحه عليه السلام فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيحَ بنَ مريم، فإنما أنا عبدٌ فقولوا : عبدُ الله ورسولُه»[3]، وإذا كان هذا في حقه ﷺ : فغيرُه من البشر أولى أن لا يُزاد في مدحهم.

والنبيُّ ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق، وهو رسولُ رب العالمين إلى جميع الثقلين، وله من الفضائل الكثيرة الثابتة في الكتاب والسنة ما تُغني عن أن يختلق الناسُ له فضائل، ولأجل حرصه ﷺ على حماية التوحيد وتحذيره الشديد من الاقتراب من الشرك ووسائله : نهى عن الإطراء في مدحه.

ثانياً : تصوير الأولياء والصالحين :

سبق أن أول شركٍ حدث في بني آدمَ عليه السلام سببُه الغلوُّ في الصالحين بتصويرهم،

---

(١) النسخ : تبديل الشيء بغيره، والمراد هنا : تبديلُ علمِ سببِ نَصْبِ هذه الصور من تذكُّر أحوالهم إلى أنه من أجل عبادتهم.

(٢) صحيح البخاري (ح/ 4920).

(٣) رواه البخاري (ح/ 3445).

كما حصل من قوم نوح ، وفي الصحيحين عن عائشة– رضي الله عنها -: أن أمَّ حبيبة وأم سلمة – رضي الله عنهما - ذكرتا كنيسةً رأينها بالحبشة، فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال : «إن أولئك إذا كان فيهم الرجلُ الصالحُ فمات : بنوا على قبره مسجداً، وصوّروا تلك الصور، فأولئك شرارُ الخلقِ عند الله يوم القيامة»(١).

ولخطر التصوير وعظم جرم فاعله : وردت نصوصٌ شرعية فيها تغليظ على المصوِّرين، وتدل على تحريم التصوير لذوات الأرواح، ومن النصوص الواردة في ذلك ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إن أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»(٢).

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجلٌ فقال : إني رجلٌ أصوِّرُ هذه الصور، فأفتِني فيها، فقال له : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « كل مصوِّرٍ في النار، يجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفساً فتعذِّبه في جهنم »، وقال : إن كنتَ لا بد فاعلاً فاصنع الشجرَ وما لا نفس له(٣).

وعن أبِي الهياج الأسديِّ قال : قال لي عليُّ بنُ أبِي طالب رضي الله عنه : «ألاَ أبعثُك على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ : ألاّ تَدَعَ تمثالاً إلاّ طمستَه، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيتَه»(٤)

وكلُّ هذا يدل على خطورة التصوير لذوات الأرواح، وأنه قد يكون من الأسباب المفضيةِ إلى الشرك والعياذ بالله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بالأرقام (427، 434، 1341)، ومسلم (ح/ 528).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ 5950)، ومسلم (ح/ 2109).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ 2225)، ومسلم (ح/ 2110)، واللفظ لمسلم.

(٤) أخرجَه مسلم (ح/ 969).

ثالثاً – من أنواع الغلوِّ المحرَّم - التبرك الممنوع بالصالحين :

وسيأتي الحديث عنه في الفقرة اللاحقة.

ثانياً : التبرك الممنوع :

التبرك : طلب البركة، والبركةُ : كثرة الخير وزيادتُه واستمرارُه.

والتبرك على قسمين :

أ - تبرك مشروع : وهو أن يفعل المسلمُ العبادات المشروعة طلباً للثواب المترتب عليها، ومن ذلك أن يتبرك بقراءة القرآن والعملِ بأحكامه، ومنه التبرك بالمسجد الحرامِ بالصلاةِ فيه؛ ليحصل على فضيلة مضاعفة الصلاة فيه، فهذا من بركة المسجد الحرام.

ب -تبرك ممنوع، وهو ينقسم من حيث حكمه إلى قسمين :

١ -تبرك شركي : وهو أن يعتقد المتـبَرِّكُ أن المتـبَرَّكَ به – وهو المخلوق – يهَبُ البركةَ بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالاً، أو أن يطلب منه الخيرَ والنماءَ فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو وحده موجِدُ البركةِ وواهبُها، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : «البركةُ من الله»، فطلبُها من غيره أو اعتقادُ أن غيره يهبُها بذاته : شرك.

٢ -تبرك بدعي : وهو التبركُ بما لم يَرِد دليلٌ شرعي على جواز التبرك به، معتقداً أن الله تعالى جعلَ فيه بركة، أو التبرك بالشيء الذي وردَ التبركُ به على غير الوجه الذي وردَ في الشرع التبركُ به.

وهذا محرم؛ لأن فيه إحداثَ عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سنة، ولأنه جعل ما ليس بسببٍ سبباً، فهو من الشرك الأصغر، ولأنه يؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر.

والتبرك البدعيُّ ينقسم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : التبرك الممنوع بالأولياء والصالحين :

وردَت أدلة كثيرة تدل على مشروعية التبرك بجسد وآثار النبي ﷺ ، كشَعره، وعرقه، وثيابه، وغير ذلك.

أما غيرُ النبي ﷺ من الأولياء والصالحين : فلم يَرد دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يدل على مشروعية التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم، ولذلك لم يَرد عن أحد من أصحاب النبي ﷺ ولا أحدٍ من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحدٍ من الصالحين، فلم يتبركوا بأفضل هذه الأمةِ بعد نبيها، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولا بغيره من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم ولا بأحدٍ من أهل البيت ولا غيرهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لحرصهم الشديد على فعل جميع أنواع البر والخير، فإجماعُهم على ترك التبرك بجسد وآثار غيره ﷺ من الصالحين دليل على عدم مشروعيته.

ومن مظاهر التبرك بالصالحين :

١ -التمسح بهم، ولبس ثيابهم أو الشرب بعد شربهم طلباً للبركة.

٢ -تقبيل قبورهم، والتمسح بها، وأخذ ترابها طلباً للبركة، وقد حكى جمعٌ من أهل العلم إجماع العلماء على أن هذا كله منهيٌّ عنه، وذكر بعضُ علماء الشافعية والحنفية أن هذه الأفعال من عادات النصارى(١).

٣ -عبادة الله تعالى عند قبورهم تبركاً بها، معتقداً فضلَ التعبد لله تعالى عندها، وأن ذلك سبب لقبول هذه العبادة، وسبب لاستجابة الدعاء.

---

(١) كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي، كما في حاشية الهيتمي على منسك النووي (ص/ 454).

النوع الثاني : التبرك بالأزمان والأماكن والأشياء التي لم يَرد في الشرع ما يدل على مشروعية التبرك بها :

ومن أمثلة هذه الأشياء :

١ - الأماكن التي مرَّ بها النبيُّ ﷺ أو تعبد لله فيها اتفاقاً من غير قصدٍ لها لذاتها، وإنما لأنه ﷺ كان موجوداً في هذه الأماكن وقتَ تعبده لله تعالى بهذه العبادة، ولم يَرد دليلٌ شرعي على فضلها.

فلا يجوز للمسلم قصدُ زيارة هذه الأماكن للتعبد لله تعالى عندها، كما لا يجوز مسح شيء من هذه الأماكن لطلب البركة.

ولذلك لم يثبت عن أحدٍ من الصحابة ﷺ أنه قصدَ شيئاً من هذه الأماكن للتبرك بها بتقبيلٍ أو لمس أو غيرها، ولا أن أحداً منهم قصدَها للتعبد لله تعالى فيها[١].

وقد ثبتَ عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجدِ الحرام، ومسجدِ الأقصى[٢]»[٣].

وثبتَ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما رأى الناسَ وهو راجعٌ من الحج ينزلون فيصلون في مسجد، فسأل عنهم، فقالوا : مسجدٌ صلى فيه النبيُّ ﷺ ، فقال: «إنما

---

(١) أما ما جاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - من صلاته في مواضع صلى فيها النبيُّ ﷺ : فهو ﷺ لم يسافر إليها ولم يقصد زيارتَها وهو في مكان آخر، وإنما اتفق مرورُه بها.

(٢) قال النووي - رحمه الله - : «هكذا وقع في صحيح مسلم هنا، و(مسجد الحرام، ومسجد الأقصى) من إضافة الموصوفِ إلى صفتِه، وقد أجازه النحويون الكوفيون، وتأوله البصريون على أن فيه محذوفاً تقديرُه: مسجد المكان الحرام والمكان الأقصى، ومنه قوله تعالى : ﴿وما كنتَ بجانب الغربِيِّ﴾ أي : المكان الغربي ونظائرُه».

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 1189)، ومسلم (ح/ 1397)، واللفظ له.

هلكَ مَن كان قبلكم أنهم اتخذوا آثارَ أنبيائهم بِيَعاً، مَن مَرَّ بشيءٍ من هذه المساجد فحضرت الصلاة : فليصل، وإلا فليمض»(١).

2- التبرك ببعض الأشجار وبعضِ الأحجار وبعضِ الأعمدة وبعضِ الآبار والعيون التي يظن بعضُ العامة أن لها فضلاً، إما لظنهم أن أحدَ الأنبياء والأولياء وقفَ على ذلك الحجَر، أو لاعتقادهم أن نبياً نام تحت تلك الشجرة، أو يرى أحدُهم رؤيا أن هذه الشجرةَ أو هذا الحجرَ مبارك، أو يعتقدون أن نبياً اغتسلَ في تلك البئر أو العين، أو أن شخصاً اغتسلَ فيها فشُفي، ونحو ذلك، فيغلون فيها، ويتبركون بها، فيتمسحون بالأشجار والأحجار، ويغتسلون بماء هذه البئر أو تلك العين طلباً للبركة، ويعلقون بالشجرةِ الخرقَ والمسامير والثياب، فربما أدى بهم غلوُّهم هذا في آخر الأمر إلى عبادة هذه الأشياء، واعتقاد أنها تنفع وتضر بذاتها.

ولا شك أن التبركَ بالأشجارِ والأحجار والعيون ونحوها بأي نوعٍ من أنواع التبرك، من مسح، أو تقبيل، أو اغتسال، أو غيرها مما سبق ذكرُه، تبركاً وتعظيماً : محرمٌ بإجماع أهل العلم؛ لأنه إحداثُ عبادات ليس لها أصل في الشرع، ولأنه من أعظم أسباب الوقوع في الشرك الأكبر.

ولِـمَا روى أبو واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول ﷺ قِبَلَ حنين ونحن حديثو عهدٍ بكفر، وللمشركين سدرةٌ يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتَهم وأمتعتَهم، يُقال لها ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا : يا رسولَ الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط،

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (2/ 273)، وابن أبي شيبة في الصلاة، في الصلاة عند قبر النبيﷺ، وإسناده صحيح، صحيحه شيخُ الإسلام، كما في (الفتاوى)(10/ 410)، والحافظ في (الفتح)(1/ 569).

فقالﷺ : «الله أكبر ! هذا كما قالت بنو إسرائيل﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: 138]، ثم قال : إنكم قومٌ تجهلون، لتركبن سَنَنَ مَن كان قبلكم[1]

فلما طلبَ حدثاءُ العهد بالإسلام من الصحابة ﵃ شجرةً يتبركون بها تقليداً للمشركين : أنكرَ عليهم النبيُّ ﷺ ذلك، وأخبرَهم أن طلبَهم هذا يشبه طلبَ بني إسرائيل من موسى ﵇ أن يجعل لهم آلهةً تقليداً لمشركي زمانهم، فطلبُهم مشابِهٌ لطلب بني إسرائيل من جهة طلب التشبُّه بالمشركين فيما هو شرك، وإن كان ما طلبَه هؤلاء الصحابةُ ﵃ من الشرك الأصغر.

وليس في دين الإسلام حجرٌ أو غيرُه يُشرع مسحُه أو تقبيلُه تبركاً، حتى مقام الخليل ﵇ لا يُشرع تقبيلُه مطلقاً، مع أنه وقفَ عليه، وأثرت فيه قدماه ﵇ وهذا كله قد أجمع عليه أهلُ العلم.

أما مسحُ الحجر الأسود وتقبيلُه، وكذلك مسحُ الركن اليماني في أثناء الطواف : فإنما هو من باب التعبد لله تعالى، واتباعِ سنةِ النبي ﷺ ، ولذلك قال عمرُ ﵁ لَـمّا قبّلَ الحجرَ الأسود : « إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله يقبلك : ما قبلتُك »[2].

وقد قطع عمرُ ﵁ شجرة بيعة الرضوان لما بلغه أن ناساً يأتون إليها؛ وذلك حسماً لمادة الشرك، وهذا هو الواجب تجاه الأشجار والأحجار والآبار والعيون التي يتبرك بها العامة؛ حسماً لمادة الشرك.

---

(١) أخرجه أحمد (5/ 218)، والترمذي (ح/ 2180)، وابن حبان (ح/6702) وغيرُهم بإسناد صحيح رجالُه رجالُ الشيخين. ومعنى (ينوطون) : أي يعلقون، و(ذات أنواط) اسمٌ لشجرةٍ بعينها.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 1597)، ومسلم (ح/ 1270).

3- التبرك ببعض الليالي والأيام التي يُقال إنها وقعت فيها أحداثٌ عظيمة، كالليلة التي يُقال إنها حصل فيها الإسراء والمعراج ونحو ذلك.

النوع الثالث : التبرك بالأماكن والأشياء الفاضلة بغير ما ورد فيها :

وردت نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ تدل على فضل وبركة بعض الأماكن، كالكعبة المشرفة، والمساجد الثلاثة، وبعض الأزمان، كليلة القدر، ويوم عرفة، وبعض الأشياء الأخرى، كماء زمزم، والسحور للصائم، والتبكير في طلب الرزقِ ونحوِه، وغير ذلك.

والتبركُ بهذه الأشياء يكون بفعل العبادات وغيرِها مما وردَ في الشرع ما يدل على فضلها فيها، ولا يجوز التبرك بها بغير ما ورد، وعليه، فمَن تبركَ بالأزمان أو الأماكن أو الأشياء التي وردت نصوصٌ تدل على فضلها أو بركتها : بتخصيصِها بعباداتٍ أو تبركاتٍ معينةٍ لم يَرِد في الشرع ما يدل على تخصيصِه بها : فقد خالفَ المشروع، وأحدثَ بدعةً ليس لها أصلٌ في الشرع، وذلك كمن يتبرك بجدران الكعبةِ بتقبيلها أو مسحها، أو يتمسح بمقام إبراهيم عليه السلام، أو بجدران المسجد الحرام أو المسجد النبوي، فهذا كله محرم، وهو من البدع المحدَثة، وقد اتفق أصحابُ النبي ﷺ وسلفُ هذه الأمة على عدم مشروعيته، ومثلُه أن يتبرك بأحجار أو تراب شيء من المواضع الفاضلةِ بالتمرغ عليه، أو بجمعه والاحتفاظِ به.

ومما يدل على تحريم التبرك بالأشياء الفاضلةِ بغير ما وردَ في الشرع :

١ -ما ثبتَ في الصحيحين عن ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لَـمّا قبّلَ الحجرَ الأسود : «إني لأعلم أنكَ حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني

رأيتُ النبيَّ ﷺ يقبّلك : ما قبّلتُك »[1]، وإذا كان هذا في شأن الحجر الأسود الذي هو أفضل الكعبة : فغيرُه من الأماكن والأشياء الفاضلة أولى، فيتعبد المسلمُ فيها بما وردَ في الشرع ولا يزيد عليه.

٢ -ما ثبتَ عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابنِ عم النبي ﷺ عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما أنه أنكرَ على مَن استلم أركانَ الكعبةِ الأربعة؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يستلم إلا الحجر الأسود والركنَ اليماني[2].

٣ -ما ثبتَ عن الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما من الإنكارِ على مَن مسح مقامَ إبراهيم، وقال لمن رآه يمسح : لم تؤمَروا بهذا، وإنما أُمِرتم بالصلاة عنده[3].

٤ -وهذا هو الذي ثبت عن التابعين، قال مجاهد : لا تقبّل المقامَ ولا تلمسه[4].

والتبرك البدعي من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر؛ لأن «العامة لا تقتصر في ذلك على حد، بل تتجاوز فيه الحدود، وتبالغ في جهلها في التماس البركة، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيمٌ يخرج به عن الحد، فربما اعتقد في المتبَرَّكِ به ما ليس فيه، وهذا التبركُ هو أصل العبادة، ولأجله قطعَ عمرُ رضي الله عنه

---

(١) تقدم تخريجُه قريباً.

(٢) رواه البخاري في الحج، باب مَن لم يستلم إلا الركنين (ح/ 1608)، ورواه الإمام أحمد (1/ 217) مطولاً، وفيه : أن معاويةَ رضي الله عنه قال لابن عباس – رضي الله عنهما –: صدقت.

(٣) أخرجه عبدُ الرزاق في مصنفه، باب المقام (ح/ 8958)، وابن أبي شيبة في الحج : في مسح المقام، مَن كرهه؟(8/ 714-برقم/ 15753)، وسنده صحيح.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الحج : في مسح المقام، مَن كرهه؟ (8/ 714-برقم/ 15754).

الشجرةَ التي بويع تحتها النبيُّ ﷺ ، بل هذا هو أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية، حسبما ذكرَه أهلُ السير»[1].

ثالثاً : رفع القبور وتجصيصُها، وإسراجُها، وبناء الغرف أو المساجد عليها، وعبادةُ الله تعالى عندها :

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن هذه الأمور كلها، ومنها :

١ -ما رواه جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله قبل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول : «...ألا وإنّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائِهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجد؛ فإنّي أنهاكم عن ذلك»[2]

٢ -ما رواه عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن من شرار الناس مَن تدركُه الساعةُ وهم أحياء، ومَن يتخذ القبورَ مساجد»[3].

٣ -ما روته أم المؤمنين عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفِقَ يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنةُ الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» يحذّر ما صنعوا. قالت عائشةُ رضي الله عنها : «ولولا ذلك: لأُبرِزَ قبرُه، غير أنه خشي أن يُتخذا مسجداً»[4].

---

(١) (الاعتصام) للشاطبي (2/ 9).

(٢) أخرجُ الإمامُ مسلم (ح/ 532).

(٣) رواه الإمام أحمد (ح/ 3609، 3929).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (ح/ 435، 436)، ومسلم (ح/ 529، 531).

٤ -ما سبق من أن علياً ﷺ قال لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسولُ اللهﷺ ؟ لا تدع تمثالاً إلا طمستَه، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[١].

٥ -ما رواه جابرُ بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن يُجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه[٢].

ومعنى اتخاذ القبور مساجد: بناءُ المساجد عليها، ويدخل فيه أيضاً جعلُها مكاناً للصلاة ولو لم يُبنَ عليها أو بينها مسجد، وهذا يشملُ السجودَ على القبر، والصلاةَ إليه، وجعلَه في قبلة المصلي، وقصدَ الصلاة والدعاء والذكر عنده.

وقد وردت أحاديثُ فيها النصُّ على النهي عن هذه الأمور بخصوصها، ومنها:

١ -ما رواه أبو مرثد الغنويﷺ عن النبيﷺ أنه قال: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[٣].

٢ -ما رواه أبو سعيد الخدريﷺ أن رسولَ الله ﷺ نهى أن يُبنى على القبور، أو يقعد عليها، أو يصلى عليها[٤].

٣ -ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً: «لا تصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر»[٥].

---

(١) رواه مسلم (ح/ 969).

(٢) رواه مسلم (ح/ 970).

(٣) رواه مسلم (ح/ 972).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (ح/ 12051، 12168) من طريقين، وقد صححه بمجموعهما الشيخ الألباني في (تحذير الساجد) (ص/ 23).

(٥) رواه أبو يعلى (ح/ 1020)، وابن ماجه (ح/ 1562)، وإسناد أبي يعلى صحيح، رجاله رجال مسلم، وقد صححه الشيخ الألباني في (أحكام الجنائز) (ص/ 264).

وورد في الأحاديث أيضاً النهيُ عن اتخاذ قبره ﷺ عيداً، والعيدُ المكانيُّ هو المكانُ الذي يُقصد الاجتماع فيه وانتيابُه للعبادة.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي أنه قال : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتَكم تبلغني حيث كنتم»[١].

وإذا كان هذا في حق قبره ﷺ الذي هو أفضلُ قبرٍ على وجه الأرض : فكيف بقبر غيره من البشر.

---

(١) رواه أحمد (2/ 367)، وأبو داود (ح/ 2042) بإسناد حسن، وقد حسنه الحافظ ابن عبد الهادي وابن حجر وغيرهما.

المبحث الثالث : في الشرك الأصغر :

وهو كل ما كان فيه نوع شرك، لكنه لم يصل إلى درجة الشرك الأكبر.

وهو كبيرةٌ من كبائر الذنوب، بل هو من أكبر الذنوب بعد نواقض التوحيد، كما أن هذا الشركَ قد يعظم حتى يؤول بصاحبه إلى الشرك الأكبر، فصاحبُه على خطرٍ عظيم من أن يؤدي به الوقوعُ في الشرك الأصغر إلى الخروج من دين الإسلام.

وللشرك الأصغر أنواع كثيرة، منها :

النوع الأول : الشرك الأصغر في العبادات القلبية :

ومن أمثلة هذا النوع :

١- الرياء : وهو أن يُظهِر الإنسانُ العملَ الصالحَ للآخرين أو يحسِّنُه عندهم، أو يَظهَر عندهم مندوب إليه ليمدحوه ويَعظُمَ في أنفسِهم.

وقد وردت أدلةٌ كثيرةٌ تدل على تحريم الرياء وعِظَمِ عقوبة فاعله، وأنه يُبطلُ العملَ الذي يصاحبُه، منها حديثُ محمود بن لبيد ﷺ مرفوعاً : « إن أخوف ما أخاف عليكم : الشرك الأصغر »، قالوا : وما الشركُ الأصغر يا رسولَ الله ؟ قال: «الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم جزاءاً ؟!»[١].

فينبغي للمسلم البعد عن الرياء، والحذر من الوقوع فيه، وذلك بتقوية الإيمان في القلب، والتزود من العلم الشرعي، وبالأخص علم العقيدة، والإكثار من الالتجاء إلى الله تعالى ودعائه أن يعيذه من شر نفسِه ومن شرور الشيطان

---

(١) رواه أحمد (5/ 428، 429)، والبغوي (4135) بإسناد حسن.

ووساوسه، وأن يرزقه الإخلاص، وكذلك بتذكر العقوبات الأخروية العظيمة التي تحصل للمرائي، والتفكُّر في حقارة المرائي، وفي حقيقة مَن يرائي لأجله، من كونه لا يملك له شيئاً من النفع أو الضر.

2- أن يعمل الإنسانُ العبادةَ المحضةَ ليحصل على مصلحةٍ دنيويةٍ مباشرة، وفي الحديث: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسولِه: فهجرتُه إلى الله ورسولِه، ومَن كانت هجرتُه إلى دنيا يصيبُها أو امرأة ينكحها: فهجرتُه إلى ما هاجر إليه»[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «مَن تعلم علماً مما يُبتغى به وجهُ الله، لا يتعلمه إلا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا: لم يجد عَرَف الجنة»، يعني: ريحَها[٢].

3- الاعتماد على الأسباب:

والواجبُ هو استعمالُ الأسباب المشروعةِ التي ثبتَ نفعُها بالشرع أو التجربة الصحيحة، مع توكله على الله تعالى، واعتقادِ أن هذا الأمرَ إنما هو مجرد سبب، وأنه لا أثر له إلا بمشيئة الله تعالى، إن شاء نفع بهذا السبب، وإن شاء أبطلَ أثرَه، والمؤمنُ مأمورٌ بفعل السبب، مع التوكل على مسَبِّبِ الأسباب ﷻ.

4- التطيّر: وهو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو غيرهما، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الطيرة شرك»[٣].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 1)، ومسلم (ح/ 1907).

(٢) رواه أحمد (2/ 338)، وأبو داود (ح/ 3664)، وابن حبان (ح/ 78) بإسناد حسن. وتفسيرُ العرف بالريح هو من تفسير بعض رواة الحديث.

(٣) رواه أحمد (ح/ 3687 -تحقيق شاكر)، وأبو داود (ح/ 3910)، والترمذي (ح/ 1614)، وابن حبان

النوع الثاني من أنواع الشرك الأصغر : الشرك في الأفعال :

ومن أمثلة هذا النوع :

1- الرقى الشركية :

الرقى : الأمور التي يعوَّذ بها لرفع البلاء أو دفعِه.

والرقى التي يفعلُها الناسُ تنقسم إلى نوعين :

النوع الأول : الرقى الشرعية : وهي الأذكار من القرآن الكريم والأدعية والتعويذات الثابتة في السنة، أو الأدعية الأخرى المشروعة التي يقرؤها الإنسانُ على نفسه، أو يقرؤها عليه غيرُه؛ ليعيذه الله تعالى من الشرور بأنواعها.

وهذه الرقيةُ جائزة بل مستحبة بشرط أن يعتقد الراقي والمرقي أن الرقيةَ لا تؤثر بذاتها، وأن لا يعتمد عليها المرقي بقلبه، وأن يعتقد أن النفعَ إنما هو من الله تعالى، وأن هذه الرقية إنما هي سبب من الأسباب المشروعة، كما يشترط أن لا تكون من ساحر أو متهمٍ بالسحر.

النوع الثاني : الرقى المحرمة :

ومنها : الرقى الشركية، وهي الرقى التي يعتمد فيها الراقي أو المرقي على الرقية، فإن اعتمد عليها مع اعتقاده أنها سببٌ من الأسباب، وأنها لا تستقل بالتأثير: فهذا شرك أصغر، وإن اعتمد عليها اعتماداً كلياً حتى اعتقدَ أنها تنفع من دون الله تعالى، أو تضمنت صرفَ شيء من العبادة لغير الله تعالى، كالدعاء، أو الاستعاذة بمخلوقٍ فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى : فهو من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

(6122)، وإسناده صحيح.

والدليل على تحريم جميع الرقى الشركية: قولُه ﷺ : «إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة: شرك»[1].

وما روى عوفُ بنُ مالك الأشجعي ﷺ قال : كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا : يا رسول الله، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : «أعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»[2].

2- التمائم الشركية :

التمائم في اللغة : جمع تميمة، وهي في الأصل خرزة كانت تعلَّق على الأطفال، يتقون بها من العين ونحوِها، وكأنّ العرب سموها بهذا الاسم لأنهم يريدون أنها من تمام الدواء والشفاء المطلوب.

وفي الاصطلاح : هي كل ما يُعلّق عل المرضى أو الأطفال أو البهائم أو غيرها من تعاويذ لدفع البلاء أو رفعه.

ومن أنواع التمائم : الحجب والرقى التي يكتبها بعضُ المشعوذين، ويكتبون فيها طلاسم وكتاباتٍ لا يُفهم معناها، وغالبها شركٌ واستغاثات بالشياطين — وتُعلق على الأطفال أو على البهائم أو على بعض السلع أو أبواب البيوت، يزعمون أنها سببٌ لدفع العين، أو أنها سببٌ لشفاء المرضى، وهذه كلها محرمة، وهي من

---

(١) رواه الإمام أحمد (1/ 381)، وأبو داود (3883)، وابن ماجه (3530)، وابن حبان (6090) وغيرهم من طرق عن ابن مسعود ﷺ ، وهو صحيح بمجموع طرقه، وأوله : أن ابن مسعود ﷺ دخلَ على زوجته، فرأى في عنقها خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : خيطٌ رقي لي فيه، فأخذه وقطعه، ثم قال : إن آلَ عبد الله لَأغنياء عن الشرك، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «إن الرقى...».

(٢) رواه مسلم (ح/ 2200).

الشرك؛ لقوله ﷺ : «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، ولقوله ﷺ : «مَن علّقَ تميمةً فقد أشرك»[١]، فهي من الشرك لأنهم ظنوا أن لغير الله تعالى تأثيراً في الشفاء.

لكن إن اعتقد مُتَّخِذُها أنها تنفع بذاتها من دون الله تعالى : فهو شرك أكبر، وإن اعتقدَ أن الله تعالى هو النافعُ وحده، لكن تعلّق قلبُه بها في دفع الضر : فهو شرك أصغر؛ لاعتماده على الأسباب.

النوع الثالث : الشرك الأصغر في العبادات القولية :

ومن أمثلة هذا النوع :

1- الحلف بغير الله تعالى :

اليمين عبادة من العبادات التي لا يجوز صرفُها لغير الله، فيحرم الحلفُ بغيره تعالى؛ قال ﷺ : «ألاَ إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، مَن كان حالفاً : فليحلف بالله، وإلا فلْيصمت»[٢].

فمَن حلف بغير الله، سواء كان نبياً، أو ولياً، أم الكعبة، أم غيرها : فقد ارتكبَ كبيرةً من كبائر الذنوب، ووقع في الشرك؛ لقوله ﷺ : «مَن حلفَ بغير الله: فقد كفرَ أو أشرك»[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (4/ 156)، والحاكم (4/ 219) بإسناد حسن، من حديث عقبة بن عامر ﷺ، وله شواهد كثيرة.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6108)، ومسلم (ح/ 1646).

(٣) رواه الإمام أحمد (329، 4904، 5375) – تحقيق شاكر – وأبو داود (ح/ 3251)، والترمذي (1535)، وابن حبان (ح/ 4358) وغيرهم، وإسناده صحيح،رجالُه رجال مسلم.

ولأن الحلفَ فيه تعظيمٌ للمحلوفِ به، فمَن حلفَ بغير الله تعالى كائناً من كان : فقد جعلَه شريكاً لله ﷻ في هذا التعظيم الذي لا يليق إلا به سبحانه وتعالى.

وهذا من الشرك الأصغر إن كان الحالفُ إنما أشرك في لفظ القسم لا غير، وأما إن كان الحالفُ قصدَ بحلفه تعظيمَ المخلوق الذي حلف به كتعظيم الله تعالى: فهذا شرك أكبر والعياذ بالله تعالى.

2- التشريك بين الله تعالى وبين أحد من خلقه بـ«الواو» :

العطفُ بالواو يقتضي مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، ولذلك فإنه يَحرُم العطفُ بها بين الله وبين أحدٍ من خلقه في أي أمرٍ من الأمور التي يكون للمخلوق فيها دخلٌ في وقوعها، كأن يُقال : ما شاء الله وشئت، أو يقال : هذا من بركات الله وبركاتِك، أو يُقال : ما لي إلا الله وأنت، أو يقال : أرجو الله وأرجوك، ونحو ذلك، فمَن تلفظ بأحد هذه الألفاظ أو ما يشبهها : فقد وقع في الشرك، والدليل قولُه تعالى﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22]، قال ابنُ عباس - رضي الله عنهما -: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان»(١)

وروت قتيلة بنت صيفي - رضي الله عنها - أن يهودياً أتى النبيَّ ﷺ فقال : «إنكم تندِّدون، وإنكم تشركون، تقولون : ما شاء الله وشئت، وتقولون : والكعبة، فأمرَهم النبيُّ ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : وربِّ الكعبة، ويقولون : ما شاء الله

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره لهذه الآية (رقم/ 230)، وسنده حسن.

ثم شئت[١].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال النبيُّ ﷺ: «أجعلتني لله نِدّاً ؟! بل ما شاء الله وحده»[٢].

---

(١) رواه أحمد (6/ 371، 372)، والنسائي (3782)، والطحاوي في مشكل الآثار (328) من طريقين أحدهما صحيح، وقد صححه الحافظ في (الإصابة) (4/ 378).

(٢) رواه أحمد (1/ 214)، والبخاري في (الأدب المفرد) (ح/ 783)، وسنده حسن.

الفصل الثاني : الكفر :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : بيان حقيقة الكفر :

أولاً : تعريف الكفر لغة :

الكفر لغة هو الستر والتغطية، والعرب تقول للزارع: كافر؛ لأنه يكفُرُ البَذْرَ المبذورَ في الأرض بتراب الأرض التي أثارها، ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، قال لبيد :

يعلو طريقة متنها متواتراً * في ليلةٍ كفَرَ النجومَ غمامُها

ثانياً: تعريف الكفر اصطلاحاً:

الكفر في اصطلاح الشرع نقيضُ الإيمان، وهو عند كل طائفة مقابل ما فُسِّر به الإيمان، والجميع متفقون على أنه عدم الإيمان بالله تعالى، سواء اعتقد نقيضَه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم.

ومذهبُ أهل السنة والجماعة : أنه كما أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، فكذلك الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد.

ولا يصح حصرُ الكفر في الجهل والتكذيب القلبي، كما ذهبَ إلى ذلك كثيرٌ من المتكلمين الذين وقعوا في الإرجاء، ففسّروا الإيمانَ بأنه مجرد المعرفة والتصديق، فحصروا الكفرَ في الجهل والتكذيب القلبي، وأنكروا أن تكون الأقوال والأفعال مكفِّرة، وهذا خطأ من وجوه عديدة.

فالصحيح هو ما ذهبَ إليه أهلُ السنة والجماعة، من أن الكفرَ يحصل

بالاعتقاد، والقول، والفعل.

المبحث الثاني

في بيان أنواع الكفر

ينقسم الكفر باعتبارات متنوعة إلى أقسام عديدة، وأبرز هذه الاعتبارات هي :

الأول: أقسامه باعتبار حكمه.

الثاني: أقسامه باعتبار بواعثه وأسبابه.

الثالث: أقسامه باعتبار كونه طارئاً أم أصلياً.

وفيما يلي تفصيل هذه التقسيمات:

التقسيم الأول: أقسامه باعتبار حكمه:

ينقسمُ الكفر باعتبار حكمه إلى قسمين:

القسم الأول: كفر أكبر، مخرج من الملة، وهو مضاد لأصل الإيمان، وموجب للخلود في النار، ويشمل أنواعاً كثيرة سيأتِي بيانها في التقسيم الثاني إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني: كفر أصغر، وهو يضاد كمال الإيمان الواجب، ويضاد الشكر الذي هو العمل بالطاعة، وهو موجب لاستحقاق الوعيد، ولا يُخرجُ من الدين، والمعاصي كلها من هذا النوع، كما سمَّى الله تعالى ورسولهﷺ بعضَها كفراً.

وهذا النوع يسمى بالكفر الأصغر، وبـ(كفر دون كفر)، و(كفر النعمة)، وكلا القسمين يطلق عليهما مسمى الكفر.

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ثلاثة أبواب متتالية توضح هذا التقسيم، وهي[1]:

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح (1/ 104-106): كتاب الإيمان.

أولها: «باب كفران العشير، وكفر دون كفر».

والثاني:«باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك

والثالث: «باب: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]، فسماهم المؤمنين».

وأورد تحت هذه الأبواب من النصوص ما فيه إيضاح لهذا التنوع في إطلاق[١] الكفر كما أن الإمام مسلماً أورد نصوصاً كثيرة تدل على إطلاق الكفر على المعاصي[٢]، ومن النصوص التي ورد فيها إطلاقُ الكفر على المعاصي :

١ -حديث ابن عباس– رضي الله عنهما – قال : قال النبيﷺ : «أُريتُ النارَ فإذا أكثرُ أهلها النساءُ؛ يكفرن»، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ، ثم رأت منكَ شيئاً، قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قط»[٣]، أي: يجحدن إحسان أزواجهن.

٢ -وحديث أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ قال : «لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ»[٤].

٣ -وحديث عبد الله بن مسعودرضي الله عنه أن النبيﷺ قال : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٥].

---

(١) انظر: الأحاديث (29-31).

(٢) صحيح مسلم (الأحاديث: 60-73).

(٣) رواه البخاري (ح/ 29)، ومسلم (ح/ 907).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 6768)، ومسلم (ح/ 62).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 48، 6044، 7076)، ومسلم (ح/ 64).

٤ -وقوله تعالى- وكان مما يُتلى فنسخ لفظه -: «لا تَرغبوا عن آبائكم؛ فإنه كفرٌ بكم»[١].

٥ -وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اثنتان في أمتي هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة»[٢].

٦ -وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن أتى امرأةً في دبرها: فقد كفر بما أنزل على محمد»[٣].

٧ -وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن النبيَّ ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرَّافاً فصدقه بما يقول: فقد كفر بما أنزل الله على محمد»[٤].

٨ -وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض»[٥].

وهذا تأويل ابن عباس وعامةِ الصحابة - رضي الله عنهم - في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر[٦] وهذا التنوع كان معلوماً للصحابة رضي الله عنهم، ولذلك كانوا يستفسرون حين

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (ح/ 6768)، ومسلم (ح/ 62).

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن (ح/ 67).

(٣) رواه الترمذي (ح/ 135)، وابن ماجه (ح/ 639)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح/ 639).

(٤) رواه أحمد (2/ 408)، والحاكم (1/ 8) عن أبي هريرة، وقال الحاكم: على شرطهما، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (ح/ 5939).

(٥) متفق عليه، رواه البخاري (ح/ 1741)، ومسلم (ح/ 66).

(٦) انظر: مدارج السالكين (1/ 587-589).

يوردُه الشارع ولا يفهمون مرادَه، ولهذا فإنه لَـمّا أخبر النبيُّ ﷺ بأن أكثر أهل النار النساء[1]؛ لأنهن يكفرن العشير: سأله أصحابُه عن نوع هذا الكفر، فقالوا: يكفرن بالله ؟ فبين لهم النبيُّ ﷺ مرادَه بالكفر هنا، وأنه كفران العشير — أي: الزوج —.

فلم يحملوا ﷺ الكفرَ على ظاهره حين سمعوه منه ﷺ، ولم ينكر النبيُّ ﷺ على الصحابة تثبُّـتَهم وسؤالَهم عن معنى الكفر وفهم المراد به.

وهناك فروق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، أهمُّها هي:

١ - أن الكفر الأكبرَ يُخرج من الملة، ويُحبط الأعمال، والكفر الأصغرُ لا يُخرج من الملة، ولا يُحبط الأعمال، لكن يُنقِصها بحسبه، ويُعرِّضُ صاحبَها للوعيد.

٢ - أن الكفرَ الأكبر يخلد صاحبَه في النار، والكفر الأصغر إذا دخلَ صاحبُه النار فإنه لا يخلد فيها، وقد يتوب الله على صاحبه، فلا يدخله النارَ أصلاً.

٣ - أن الكفر الأكبر يُبيح الدمَ والمال، بخلاف الكفر الأصغر.

٤ - أن الكفر الأكبر يوجب العداوةَ الخالصةَ بين صاحبه وبين المؤمنين، فلا يجوز للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب، وأما الكفر الأصغر فإنه لا يمنع الموالاة مطلقا، بل صاحبُه يُحَبُّ ويوالى بقدر ما فيه من الإيمان، ويُبغَض ويُعادى بقدر ما فيه من العصيان، والله تعالى أعلم.

التقسيم الثاني: أقسامه باعتبار بواعثه وأسبابه:

لما كانت صور الكفر متنوعة ومتعددة، لا سبيل إلى حصرها، ولا مطمع لناصح في التنبيه على أفرادها: اجتهد العلماءُ في ذكر أنواع الكفر العامة وأصوله

---

(١) الحديث رواه البخاري (ح/ 29) وسبق قريباً.

الرئيسة، التي تنبعث عنها سائرُ صور الكفر، وترجع إليها كافةُ أفراده، فذكروا أن الكفرَ من هذه الحيثيةِ ينقسم إلى خمسة أنواع، وهي: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق، وتفصيلُها كما يلي:

فأما كفر التكذيب فهو اعتقاد كذب الرسل عليهم السلام، وهذا القسمُ قليلٌ في الكفار؛ فإن الله تعالى أيّدَ رسلَه عليهم السلام، وأعطاهم من البراهين والآيات الدالّة على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة، قال الله تعالى عن فرعون وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:14]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33].

وأما كفرُ الإباء والاستكبارمع التصديق: فنحو كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمرَ الله، ولا قابلَه بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار.

ومن هذا كفرُ مَن عرف صدقَ الرسل عليهم السلام، وأنهم جاؤوا بالحق من عند الله، ولم يَنقد لهم إباءً واستكباراً، وهو الغالبُ على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومِه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون47]، وقول الأمم لرسُلِهم عليهم السلام: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم10]، وقوله تعالى﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس 11].

وهو كفرُ اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:146].

وهو كفرُ أبي طالب أيضاً؛ فإنه صدَّق الرسول ﷺ، ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحميةُ وتعظيمُ آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ، لا يصدقُه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يُصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحدُ بني

عبد ياليل للنبي ﷺ : «والله أقول لك كلمة؛ إن كنت صادقاً: فأنت أجلُّ في عيني من أن أردَّ عليك، وإن كنت كاذباً: فأنت أحقر من أن أكلمك».

وأما كفرُ الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكُّه إلا إذا ألزم نفسَه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظرِه فيها: فإنه لا يبقى معه شك؛ لأنها مستلزمةٌ للصدق، ولاسيما بمجموعها؛ فإن دلالتَها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يُظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاقُ الأكبر[1].

التقسيم الثالث: أقسامه باعتبار كونه طارئاً أم أصلياً:

الكفر باعتبار كونه أصلياً أو طارئاً ينقسم إلى نوعين:

النوع الأول: الكفر الأصلي:

وهو كفر من لم يدخل في دين الإسلام أصلا، ولم يؤمن برسالة محمدﷺ، وهو ككفر المشركين، وأهل الكتاب، والمجوس، والدهريين، والفلاسفة، والصابئة، وغيرهم من أصناف الكفار.

النوع الثاني: الكفر الطارئ، وهو كفر الردة:

وهو كفر من انتسب إلى دين الإسلام، ثم ارتدَّ عنه، قال تعالى﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ

---

(١) انظر: (مدارج السالكين) للإمام ابن القيم (1/ 591-593).

فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

والمرتد هو: الراجع إلى دينه الأول بعد دخوله في الإسلام، وسواء رجع إلى دينه أو إلى أي دين كان غير الإسلام: فإنه يطلق عليه اسم الردة.

وهذا الكفرُ يفارق الكفرَ الأصلي في أمور، منها : أن الرجل يُقَرُّ على الأصلي، فلا يُقتل أهلُ الصوامع والشيوخ، ولا تجبر المرأة على تركه، ولا يُقر على الطارئ، بل يُقتل؛ لقول النبيﷺ : «مَن بدَّلَ دينَه فاقتلوه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ 3017).

المبحث الثالث : ضوابط تكفير المعين :

الحكمُ بكفر رجلٍ مسلم هو من الخطورة بمكان، ولا ينبغي أن يتجاسَر عليه المسلمُ، وقد قرّر العلماء – بعد استقرائهم لنصوص الشرع – « أن مَن ثبتَ له عقدُ الإسلام بيقين: لم يُحكَم له بالخروج منه إلا بيقين»[١].

وقال أبو حامد الغزالي: والذي ينبغي: الاحترازُ عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحةَ دماء المصلين، المقرين بالتوحيد : خطأ، والخطأُ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دمٍ لمسلمٍ واحد[٢].

فـلا ينبغي مبادرة الفاعل بالتكفير إلا بعد أن تقيم له الحجج والبراهين على أن ما عملَه هو الشركُ الأكبرُ، وذلك لغلبة الجهل على الناس، واندثارِ علوم الشريعة النافعة في المجتمعات الإسلامية، ولاسيما علم التوحيد، وما أكثر ما وقع الجهال والعوام –حتى بعض مَن يدعي العلم– في حمأة الشرك الأكبرِ بصرف العبادة لغير الله تعالى، من الأنبياء والصالحين، وغيرهم، يؤيدهم في ذلك ويشجعُهم بعضُ المنتسبين إلى علم الدين، سابكاً ذلك في قالَب حب الصالحين فعلى العلماء أن يهتموا بنشر التوحيد بين الأنام، وبيان محاسنه، وتقبيح الشرك وتهجينه والتحذير منه، ومن البدع والمحدثات، وإلا فقد دخلوا تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٣].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (8/ 585)، ونقله بالمعنى الحافظ في الفتح (12/ 314).

(٢) نقله الحافظُ ابن حجر في (الفتح) (12/ 314)، وعزاه لكتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة.

(٣) تطهير المجتمعات من أرجاس الموبقات للشيخ آل بوطامي (ص/ 138).

وعن عياض بن حمار ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد» [1]، ولا شك أن أعظم البغي على المسلم تكفيرُه.

وقد عقد الإمامُ البخاريُّ في كتاب الأدبِ من صحيحه باباً بعنوان: «باب ما يُنهى عن السباب واللعن»، وأوردَ فيه أحاديث منها:

١ حديث أبي ذر ﵁ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر: إلا ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبُه كذلك»[2].

٢ حديث ثابت بن الضحاك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف على ملةٍ غيرِ الإسلام كذباً: فهو كما قال... ومن لعن مؤمناً فهو كقتله، ومن قذَفَه بكفر فهو كقتله»[3].

بل عقدَ فيه باباً بعنوان: «باب مَن أكفَر أخاه بلا تأويل فهو كما قال»، وأوردَ فيه أحاديث منها:

١ حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باءَ بها أحدُهما»[4].

٢ حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجلُ لأخيه يا كافر: فقد باءَ بها أحدُهما»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (ح 2865).

(٢) صحيح البخاري (ح6045).

(٣) صحيح البخاري (ح6047).

(٤) سبق تخريجه.

قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث أبي ذر السابق – بعد أن ذكر أقوالاً كثيرة في المراد من قوله ﷺ: «ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه» قال :

«وأرجح من الجميع أن من قال ذلك لمن يُعرف منه الإسلام، ولم يقم له شبهة في زعمه أنه كافر: فإنه يكفر بذلك كما سيأتي تقريرُه، فمعنى الحديث: فقد رجعَ عليه تكفيرُه، فالراجعُ التكفيرُ لا الكفر، فكأنه كفَّرَ نفسَه لكونه كفَّر مَن هو مثلُه، ومَن[2] لا يكفِّرُه إلا كافرٌ يعتقد بطلانَ دين الإسلام»[3].

وقد عدّ بعضُ العلماء تكفيرَ المسلم من المكفِّرات المناقضة للإيمان، وذلك لما وردَ في ذلك من التحذير الشديد، كما سبق في هذه الأحاديث.

فالواجبُ في هذا الباب هو الحذر الشديدُ من التسرع في التكفير ، والعصمةُ في ذلك بإذن الله تعالى هو اتباعُ منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وقد بين أهلُ السنة والجماعة لذلك ضوابط مستنبطة من نصوص الشرع، وهي :

أولاً: الفرق بين تكفير المعيَّن والتكفير المطلق:

التكفير عند أهل السنة على نوعين: تكفير المعين و التكفير المطلق:

أما تكفير المعين : فهو وصف شخص ما لعمل قام به أو قول قاله بأنه كافر، وهذا لا يجوز إلا بشروط، وانتفاء موانع، وسنذكر كل ذلك.

أما التكفير المطلق : فهو إطلاق الكفر على الفعل أو القول أو الاعتقاد وعلى فاعل ذلك على سبيل الإطلاق، وهذا النوع قد ورد في الشرع إطلاقه، فنطلقه كما

---

(١) صحيح البخاري (ح6103).

(٢) أي : ولكونه كَفَّرَ مسلماً لا يكفِّرُ مثلَه إلا كافرٌ يعتقدُ بطلانَ دين الإسلام.

(٣) فتح الباري (10/ 481).

أطلقه الشارع، فيقال مثلاً: من اعتقد أن الله ليس فوق السماء: فهو كافر، أو آكل الربا ملعون، وشارب الخمر ملعون، ونحو ذلك مما أطلقه الشارع.

ومن هذا الجنس ما يطلقه العلماء والأئمة من تكفير أصحاب البدع، مثل القدرية، والجهمية، ونحوهم، فيتعلق الحكم بالعموم أو بالفعل، ولا يتعلق بالشخص المعين، فلا يحكم بكفره إلا بتحقق شروط وانتفاء موانع.

فلا يبادَر المعين بالتكفير حتى تورد له الحجج، وتقوم عليه الحجة على أن هذه الأعمال عبادة وصرفها لغيره شرك بالله رب العالمين، فإن أصر بعد ذلك على أعماله المنافية للإسلام: فعند ذلك يحكم عليه بالشرك.

وهذا التفريقُ بين التكفير المطلق وبين تنزيله على شخصٍ معيَّن : تدل عليه أدلة الكتاب والسنة، ومنها :

ما رواه البخاريُّ عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحِك النبيﷺ، وكان النبي قد جلده في الشراب فأتي به يوما، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: «اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به»، فقال النبيﷺ: «لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»[1].

«فنهَى النبيُّ ﷺ عن لعنه مع إصراره على الشرب؛ لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعنَ في الخمر عشرة، لعن الخمر، وعاصرها، وشاربَها، وساقيها، وحاملَها، والمحمولةَ إليه، وبائعَها، ومبتاعَها، وآكل ثمنها[2]، ولكن لعن المطلق لا

---

(١) البخاري (ح 6780).

(٢) أخرجه أحمد (2/ 25)، وأبوداود(ح3674)، والترمذي (ح/1318)، وابن ماجه (ح/3381)، والطبراني في الأوسط (2/ 93ح/ 1355)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي.

يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع من لحوق اللعنة به، وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع»[١].

وقد ورد عن إبراهيم النخعي رحمه الله أنه قيل له: ما ترى في لعن الحجاج؟ فقال: ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:18].

وسئل الإمام أحمد قيل له: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره فيلعنه، قال: «لا يعجبني، لو عبّر فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ».

ومثله ورد عن الحسن البصري، وابن سيرين- رحمهم الله تعالى-[٢].

فهذه الأدلة والروايات تدل على أن التكفير المطلق لا يستلزم التكفير المعين.

ومن هذا الجنس اللعن، فلا يجوز لعنُ إنسانٍ بعينه حتى يُعرف بالنص أنه ملعونٌ بعينه، أو يموت على الكفر، وقد «اتفق العلماءُ على تحريم اللعن؛ فإنه في اللغة: الإبعاد والطرد، وفي الشرع: الإبعاد من رحمة الله تعالى، فلا يجوز أن يُبعد من رحمة الله تعالى مَن لا يُعرف حالُه وخاتمةُ أمره معرفةً قطعية، فلهذا قالوا: لا يجوز لعنُ أحدٍ بعينه مسلماً كان أو كافراً أو دابة إلا مَن علمنا بنص شرعي أنه مات على الكفر، أو يموت عليه، كأبي جهل، وإبليس.

وأما اللعنُ بالوصف: فليس بحرام، كلعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة[٣] ....

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (10/ 329-330).

(٢) انظر: السنة للخلال (1/ 522- 523).

(٣) ورد ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أخرجه البخاري (ح/ 5940)، ومسلم (ح/ 2124).

وآكل الربا وموكله[١]، والمصورين[٢]، والظالمين والفاسقين والكافرين، ولَعْن مَن غيّرَ منارَ الأرض[٣]، ومَن تولى غير مواليه[٤]، ومَن انتسب إلى غير أبيه[٥]، ومَن أحدث في الإسلام حدَثاً، أو آوى محدِثاً، وغير ذلك مما جاءت به النصوصُ الشرعية بإطلاقه على الأوصاف، لا على الأعيان، والله أعلم[٦].

ومن أهَمِّ آثار هذا التفريق : أن الشيءَ قد يكون كفراً ولكن صاحبَه لا يكفر، وهذه قاعدةٌ غفلَ عنها البعضُ فوقعوا في مأزقٍ خطير، حيث حكموا على فاعلِ كلِّ ما يُعتَبَرُ كفراً : بأنه كافر، أو حكموا على ما هو كفرٌ صريحٌ بأنه ليس كفراً؛ فراراً من الحكمِ على فاعله بالكفر، وهذا ناشئٌ من اعتقاد أن الحكمَ على شيءٍ ما بأنه كفرٌ يستلزمُ أن يكون فاعلُه المعيَّنُ كافراً، وكلا الأمرين خطأ، والصواب أن لا يُحكم على كلِّ مَن صدر عنه المكَفِّرُ بأنه كافر، كما أنه لا يُحجَمُ عن وصف الفعل الذي تدل النصوصُ على أنه كفرٌ بوصفه الذي يستحقُّه.

---

(١) كما وردَ في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي أخرجه مسلم (ح/ 1598).

(٢) كما وردَ في حديث أبي جحيفة رضي الله عنه، أخرجه البخاري في مواضع، منها (ح/ 5347).

(٣) أخرجه مسلم (ح1978) من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) كما وردَ ذلك في حديث علي – رضي الله عنه – ، أخرجه البخاري (ح/ 3172)، ومسلم (ح/ 1370).

(٥) ورد في بعض روايات حديث علي المتقدم: «..ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...»، صحيح مسلم (ح/ 1370).

(٦) من كلام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم (2/ 67).

ثانياً: شروط تكفير المعين:

سبق في الفقرة الأولى أن تكفير المعين لا بد فيه من توفر شروط، وانتفاء الموانع، وسأذكر الشروطَ هنا، بينما سيأتي بيان ذكر الموانع في الفقرة الثالثة -إن شاء الله تعالى-.

الشرط الأول:

أن يظهر من قوله أو فعله ما يدل على المعنى الكفري، ويلتزمَه:

لا بد من اعتبار النيةِ في المكفرات، وكذلك بمطابقة القصدِ لِلَّفظ ؛ لأن الإسلام إذا ثبت لأحد لا يجوز إخراجه منه بالظن والتهمة، أو تحميل كلامه فوق ما يحتمل؛ لأن ذلك كله مما لا يجوز به الحكم بالكفر على الشخص المعين، وهو في ذلك مثل الحدود الشرعية: لا تثبت على الإنسان إلا بالاعتراف أو الشهود.

كما أن لازم المذهب ليس بمذهب، فإذا قال مسلمٌ قولاً ولزم منه الكفر، كمن أنكر: أن الله تعالى فوق السماء، أو نفى الصفات عن الله تعالى، فإن لازم ذلك تكذيب الله تعالى ورسوله ﷺ، بل لازم ذلك نفيُ وجوده، وهذا كفر بَيِّنٌ، ولكن لا يُحكم على الشخص بالكفر ما لم يبين له ذلك ويلتزمه؛ لأن الإنسان قد يقول المقالةَ وهو ذاهلٌ عن لازمها، بل لا يقصده، بل ربما يكون يقصد نقيضَه، كمن أراد أن ينزه الله في زعمه عن المكان فيقول: هو في كل مكان، فإن لازم ذلك أنه لا ينزّهه عن مكان طيب أو خبيث، وهذا كفر، لكن من قال هذه المقالةَ فإنه لا يقصد ذلك.

الشرط الثاني: قيام الحجة ووضوحُها:

لا يثبت الكفرُ على المعين ما لم تقم عليه الحجة التي إن خالفها كفر، «فتكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة التي يكفر من خالفها،

وإلا فليس كل من جهل شيئاً من الدين يكفر، ولهذا لما استحل طائفةٌ من الصحابة والتابعين -كقدامة بن مظعون رضي الله عنه وأصحابه- شربَ الخمر، وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحاً على ما فهموه من آية المائدة [1]: اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما رضي الله عنهم على أنهم يُستتابون، فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا [2]، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداءً؛ لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق، فإذا أصروا على الجحود كفروا.

وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله: «إذا أنا مت فاسحقوني ثم ذُرُّوني في اليم، فو الله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، فأمر الله البر فردَّ ما أخذ منه، وأمر الله البحرَ فردَّ ما أخذ منه، وقال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر له» [3].

فهذا اعتقد أنه إن فعل ذلك لا يقدر الله تعالى على إعادته وأنه لا يعيده، وجوّز ذلك وكلاهما كفر، لكنه كان جاهلاً لم يتبين له الحق بياناً يكفر بمخالفته، فغفر الله له» [4]

فاتضح من هذا أن القول قد يكون كفراً، ويطلق القول بتكفير صاحبه ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قال لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد، فإن الله تعالى

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ [سورة المائدة، الآية (96)].

(٢) سيأتي بيان هذه القصة عند ذكر موانع التكفير – بإذن الله تعالى –.

(٣) أخرجه البخاري (ح6480)، ومسلم (ح/ 2756).

(٤) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على البكري) (ص/ 259، 260 المطبعة السلفية).

يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10].

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار، بجواز أنه لا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم، فقد تكون له حسنات عظيمةتمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يُبتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيع مطاع.

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد يكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره اللهتعالى بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله تعالى يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء كان في المسائل النظرية والعلمية أو المسائل الفروعية العلمية، هذا الذي عليه أصحاب النبيﷺ وجماهير أئمة الإسلام.

ومن الأدلة الدالة على ضرورة اشتراط قيام الحجة للتكفير :

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 115].

«فكل من هداه الله تعالى ودخل في عقد الإسلام، فإنه لا يخرج إلى الكفر إلا بعد البيان»[١].

---

(١) من كلام قوام السنة الأصفهاني في كتابه (الحجة في بيان المحجة) (2/ 511).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: 15].

فهذه الآيات بعمومها تدل على أنه لا يكفر من المسلمين إلا من بلغته الحجة، ووضحت له بحيث خالفها عنادا وتكبرا أو رفضا للحق وردا له، «فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومَن ثبت إسلامُه بيقين: لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»(١).

ثالثاً : موانع تكفير المعين:

يُدرأ التكفيرُ عن المسلم -إذا فعلَ فعلاً أو قولاً أو اعتقاداً كفرياً- بمانع من الموانع التي دلت عليها أدلة الكتاب والسنة، وذكرها العلماءُ، وهذه الموانع هي :

1- الجهل:

جهلُ المسلم بالحكم الشرعي في الأمر الكفري الذي قارفه مما يدفع عنه الكفر، ومن أدلته :

1- ما رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ من حديث الرجل الذي قال لأبنائه: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني ثم اذْرُوني في الريح في البحر، فو الله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحدا» قال: ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: « أدي ما أخذت»، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب، فغفر له بذلك(٢).

---

(١) من كلام شيخ الإسلام في كتابه (الرد على البكري) بتصرف يسير (ص/ 259).

(٢) سبق تخريجه.

فهذا الرجل جهل عظيم قدرة الله عز وجل، وفعل ما فعل من خشية الله عز وجل، فغفر الله تعالى له لجهله.

2- وكذلك حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع الرسول ﷺ ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم...»(١).

فحداثة إسلامهم وجهلُهم منعت من تكفيرهم، ولم تمنع من الحكم على القول بأنه من جنس قول قوم موسى عليه السلام لموسى: «اجعل لنا إلهاً».

3- وكذلك حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وشْيُ الثوب(٢)، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نسكٌ ولا صدقةٌ، ولَيُسْرَى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: (لا إله إلا الله) فنحن نقولها». فقال له صلة: ما تغني عنهم (لا إله إلا الله) وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (5/ 218)، والترمذي (ح/ 2180) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (6/ 346 ح11185)، والطبراني في الكبير (3/ 243)، وابن حبان في صحيحه (15/ 94)، وأبو يعلى في مسنده (3/ 30).

(٢) وشي الثوب: يعني ألوانه التي يحسن بها.

حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة، تنجيهم من النار، ثلاثا[1].

فهذا فيه دليل على أن الإنسان يعذر بالجهل[2].

وهذا المانع قد قرره كثيرٌ من العلماء، قال الإمام الشافعيُّ رحمه الله عند كلامه على الأسماء والصفات الثابتة في القرآن والسنة-: «فإن خالفَ بعد ذلك بعد ثبوت الحجة عليه: فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه: فمعذورٌ بالجهل... ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها»[3].

وقال النوويُّ – بعد ذكره لمكفِّرات عديدة -: «فكل هذا أو شبهه لا شك في تكفير قائله إن كان ممن يُظنُّ به علمُ ذلك، ومَن طالت صحبتُه المسلمين، فإن كان قريبَ عهدٍ بالإسلام، أو بمخالطة المسلمين: عرّفناه ذلك، ولا يعذر بعد التعريف»[4].

ولكن العلماء هنا يفرقون بين ما يعذر الإنسانُ بجهله وما لا يعذر بجهله، والحالات التي يعذر فيها والتي لا يعذر فيها.

فأما ما كان معلوما من الدين بالضرورة -كوجوب الصلاة، وتحريم الزنا والخمر، ونحوها- فهذا لا يعذر الإنسان بجهلها، فمن أنكرها فقد كفر، إلا أن يكون بعيدا عن الأمصار، يعيش في البوادي، مما يدل على أنه لم يبلغه العلم، أو يكون

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (ح/ 4049)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (3/ 231)، مدارج السالكين (1/ 338-339).

(٣) رواه ابنُ قدامة بسنده إلى الشافعي في (إثبات العلو) (ص/ 181)، وذكره الذهبيُّ في السير (1/ 79-80)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص/ 165).

(٤) روضة الطالبين للنووي (ص/ 1728).

حديث عهد بإسلام لم يُعَلِّمه أحدٌ شرائعَ الإسلام، فهذا يُعذر بجهله ولا يكفر حتى تبين له الحجة ويعلم الحق(١).

أما ما خفي من المسائل والأحكام الشرعية: فإن الإنسان لو أنكرها جهلا فإنه يعذر بذلك ولا يكفر حتى تقام عليه الحجة، مثل رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، أو حوض النبي ﷺ، أو نحو ذلك مما قد يخفى على الإنسان.

2- التأويل:

مما يدرأ التكفيرَ عن المعين: أن يكون متأولاً فيما وقع فيه من كفر لشبهة عرضت له، فهذا لا يكفر حتى يُبَيَّن له خطؤُه وترتفع شبهته في المسألة.

ومن الأدلة الدالة على كون التأويل مانعاً من التكفير: أن قدامة بن مظعون رضي الله عنه شهد عليه شهودٌ بشرب الخمر، فقال له عمر: إني حادُّك، فقال: لو شربت كما يقولون، ما كان لكم أن تجلدوني، فقال عمر: لِـمَ؟! قال قدامة: قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: 93]، قال عمر رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إن اتقيت الله اجتنبتَ ما حرم الله عليك(٢).

فقدامةُ رضي الله عنه استحل الخمرَ لشبهةٍ عرضت له فيما فعل، وذلك أنه ظن أن الخمرَ ليست محرمة على من كان تقياً، وهذا فهمه من الآية التي استدل بها، حتى أبان له عمر رضي الله عنه خطأه في الفهم، فارتفعت بذلك شبهتُه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (6/ 61، 11/ 407).

(٢) أخرج القصة عبد الرزاق في مصنفه (9/ 245 رقم17080)، والبيهقي في سننه (8/ 315).

فعلى هذا إذا وقع الإنسانُ في أمر كفري، وهو متأول لشبهةٍ عرضت له: فلا يكفر حتى يبين له وترتفعَ شبهتُه، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : «ولهذا كنت أقول للجهميةِ من الحلولية والنفاة الذي نفوا أن الله تعالى فوق العرش، لما وقعت محنتُهم: أنا لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون؛ لأنكم جهال. وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتِهم وشيوخهم وأمرائهم، وأصل جهلهم شبهاتٌ عقلية حصلت لرؤوسهم، مع قصور عن معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له»(١).

ولكن يجب التفريقُ بين التأويل المقبول وبين التأويل المردود؛ إذ ليس كل تأويل يُعتبر سائغاً ومقبولاً، فهناك من التأويل ما يُعتبر سائغاً، ومنه ما ليس كذلك، «فالمتأول إذا أخطأ، وكان من أهل عقد الإيمان: نظر في تأويله:

فإن كان قد تعلق بأمرٍ يُفضي به إلى خلاف بعض كتاب الله، أو سنةٍ يقطع بها العذر، أو إجماع: فإنه يكفر ولا يُعذر؛ لأن الشبهةَ التي يتعلق بها مَن هذا صفتُه ضعيفةٌ لا يقوى قوة يعذر بها؛ لأن مَن شهد له أصلٌ من هذه الأصول فإنه في غاية الوضوح والبيان، فلما كان صاحبُ هذه المقالة لا يصعب عليه دركُ الحق، ولا يغمض عنده بعضُ موضع الحجة: لم يعذر في الذهاب عن الحق، بل عمل خلافه في ذلك على أنه عناد وإصرار.

ومَن تعمد خلافَ أصلٍ من هذه الأصول، وكان جاهلاً لم يقصد إليه من طريق العناد : فإنه لا يكفر؛ لأنه لم يقصد اختيارَ الكفر، ولا رضي به، وقد بلغ

---

(١) الرد على البكري (ص/ 259).

جهده، فلم يقع له غير ذلك، وقد أعلم الله سبحانه أنه لا يؤاخذ إلا بعد البيان، ولا يُعاقِبُ إلا بعد الإنذار، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 115]، فكل مَن هداه الله ﷻ ودخلَ في عقد الإسلام: فإنه لا يخرج إلى الكفر إلا بعد البيان»[١].

فمَن كان متأولاً فيما وقع فيه من كفرٍ لشبهةٍ عرضت له: فهذا لا يكفر حتى يُبَيَّن له خطؤُه وترتفع شبهتُه في المسألة، وذلك مثل أهل البدع من الخوارج، والجهمية، والمعتزلة، وغيرهم، فإن أعيانَهم لا يكفرون لوجود الشبهةِ المانعةِ لهم من قبول الحق؛ فإن الخوارج استباحوا دماءَ المسلمين ظنا منهم أنهم كفار لارتكابهم الذنوب، والجهميةُ والمعتزلةُ أنكروا صفات الله ﷻ بشبهةٍ عرضت لهم في ذلك، وهي ظنهم أن ذلك ينافي تنزيهَ الله تعالى، فلهذه الشبهة في التأويل لا يكفر أعيانهم؛ فإن علي بن أبي طالب ﵁ لم يكفِّر الخوارج، بل قال: إخواننا بغوا علينا، وقال -لما قيل له إنهم كفار-: من الكفر فروا، وقد وافقَه الصحابةُ على ذلك، فصار إجماعاً[٢]، وهذا مع ما وردَ من الحديث الذي يصفهم بأنهم يمرقون من الإسلام مروقَ السهم من الرمية[٣].

هذا في التأويل لشبهة وقعت للمؤول منعته من قبول الحق، ولا يلتحق بذلك من تستَّر بالتأويل، وجحدَ ما هو معلوم من الدين بالضرورة، كتأويل الملاحدة ما لا يمكن تأويله من الشرائع والمعاد الأخروي والجنة والنار: فهذا كفر لا شك فيه، ومن

---

(١) الحجة في بيان المحجة للأصفهاني (2/ 510-511) - بتصرف يسير -.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (3/ 282).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري بالأرقام (ح/ 3611، 5057، 6930)، ومسلم (ح/ 1066).

وقع في ذلك فهو كافر خارج من الإسلام، وإنما الحديثُ هنا في الذي يقومُ بشرائع الإسلام ولم يكن مقصده تكذيب الله تعالى ورسوله ﷺ فيما تأوله مما يخالف الحق[1].

ولا يعني عدمُ تكفير مَن هذا حاله أنه ليس مخطئاً، ولا يعني أنه غير مذنب، بل هو على خطر عظيم في بدعته، وذنبُه في ذلك على قدر بُعْدِه عن الحق، وإعراضُه عن وسائل معرفة الحق من الكتاب والسنة التي أمر المسلمون بالالتزام بهما والأخذ بمضمونها، والإعراض عما يخالفهما، ولهذا يذم أهل البدع والانحراف من الخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية وغيرهم.

3- الإكراه:

الإكراه يدرأ التكفيرَ عن المسلم، فمَن ثبتَ أنه كان مكرهاً على كلمة الكفر أو فعلٍ كفري: يُحكم بإسلامه.

فللإكراه على القول أو الفعل الكفري لا يكون كفرا على الصحيح، لقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: 106].

فمن أكره على قول كفري، من سب الله تعالى أو رسولِه ﷺ أو دينه، أو نحو ذلك، أو فعلٍ كفري، كالسجود لمخلوق أو نحوه: فإنه لا يكفر بذلك.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (3/ 283-288)، إيثار الحق على الخلق ص: (415).

الفصل الثالث : النفاق :

أولاً: تعريف النفاق لغة:

النفاقُ مصدر نافق ينافق منافقةً ونِفاقاً، وهو فعل المنافق ومادة (نفق) يدل على شيئَين: أحدهما: على انقطاع شيءٍ وذهابِه، والآخر: على إخفاءِ شيءٍ وإغماضِه.

وأطلق كثير من العلماء: أن النفاق لغة: مخالفة الظاهر للباطن.

ثانياً: تعريف النفاق اصطلاحاً:

النفاق اسم إسلامي، لم تعرفه العربُ بالمعنى المخصوصِ به، وإن كان أصلُه في اللغة معروفاً.

وقد تعددت تعريفات العلماء للنفاق، وجميعُها متقارب، والقضيةُ في النفاق تدور على معنى الإظهار والإبطان، وعدم اتفاق المعلَن مع المخفي، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكفر والإيمان، ويمكن إرجاع حاصل عبارات العلماء في تعريفه إلى أنه: إظهارُ الإيمان وإبطان الكفر.

ثالثاً : أقسام النفاق :

النفاق كالكفر ينقسم إلى نفاق دون نفاق، أو نفاق غير مخرج من الملة، ونفاق مخرج عن الملة، فهو على نوعين :

النوع الأول: النفاق الاعتقادي: وهو ما كان من طريق اعتقاد الكفر وإبطانِه، والتلبس بالإسلام وإظهارِه،مع أنه منسلِخٌ منه ومكذِّبٌ به،وهو نحلةُ المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، وهو مباينٌ للإيمان ومنافٍ لأصله ويسمى هذا النوعُ بالنفاق الأكبر، وصاحبُه يكون في الدرك الأسفل من النار، أعاذنا الرحمنُ منها.

والنوع الثاني: النفاق العملي: وهو يتصل بالأعمال الظاهرة دون الاعتقاد،

وهو غير مخرج من الملة، ولكنه منافٍ لكمال الإيمان، وصاحبُه ناقص الإيمان، ومعَرِّضٌ نفسَه للعقوبةِ والإثم.

وقد ذكر العلماءُ أن ما وردَ في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمِن خان »[١]: هو من قبيل نفاق العمل.

وكذلك ما وردَ في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهن: كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهدَ غدر، وإذا خاصَم فجر»[٢].

وقولُه ﷺ في هذا الحديث : «كان منافقاً خالصاً » معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعضُ العلماء: هذا فيمن كانت هذه الخصالُ غالبةً عليه، فأما مَن يندر ذلك منه: فليس داخلاً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث...[٣].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 33)، ومسلم (ح/ 59).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 34)، ومسلم (ح/ 58).

(٣) ذكره النووي ﷺ في شرحه على صحيح مسلم (2/ 46-47)، وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) (1/ 90-91).

الفصل الرابع : البدعة :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف البدعة :

أولاً: تعريف البدعة لغة:

البدعةُ : اسمٌ من: بدَعَ الشيءَ يَبدَعُه بَدعاً وابتدَعَه، أي: أنشأه وبدأه، وبَدَعتُ الشيءَ: إذا أنشأته، وكلُّ مَن أحدثَ شيئاً: فقد ابتدعَه، والاسمُ: البدعة، والجمع: البِدَع، فمادة (بدع) تدل على ابتداء الشيء وصَنعه لا عن مثال.

ثانياً: تعريف البدعة اصطلاحاً:

المعنى الاصطلاحي للبدعة مشتق من معناه اللغويقال الأزهري: «وكل مَن أنشأ ما لم يُسبق إليه قيل له: أبدعت، ولهذا قيل لِمَن خالف السنة: مبتدع؛ لأنه أحدث في الإسلام ما لم يسبقه إليه السلف[1].

وقد عُرِّفت البدعةُ بتعريفات منها :

أنها: «ما خالفت الكتابَ والسنةَ وإجماعَ سلف الأمة، من الاعتقادات، والعبادات»[2].

ومنها : أنها« ما أُحدِث مما لا أصلَ له في الشريعة يدل عليه[3].

ومنها : أن البدعة شرعاً:«هي التي أُحدثت بعد الرسولﷺ على سبيل التقرُّب

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (2/ 241).

(٢) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر : (مجموع الفتاوى) (18/ 308).

(٣) قاله ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) (2/ 127).

إلى الله، ولم يكن قد فعلَها الرسول ﷺ ولا أمرَ بها، ولا أقرَّها، ولا فعلتها الصحابة»[١].

وقولُه: «على سبيل التقرُّب إلى الله» يقصدُ به ما كان مخترعاً في الدين، وهو يُخرج ما كان مخترعاً في أمور الدنيا، كإحداث الآلات والبيوتات والطرقات، فإن ذلك لا يُعتبر ابتداعاً إلا من حيث المعنى اللغوي الصِّرف، ويترتب عليها الأجرُ أو الوزرُ تبعاً لنيةِ فاعلها؛ فإن أراد بذلك مصلحةً شرعيةً والاستعانةَ على الطاعة ونفعَ المسلمين: فإنه مأجور، وإن أرادَ بذلك التعاون على المنكر، والإضرارَ بالمسلمين، أو غير ذلك من المحظورات شرعاً: فهو آثم.

ومن أحسن تعريفاتها وأجمعِها : أن البدعة «عبارة عن طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشريعةَ، يقصد بالسلوك عليها المبالغةَ في التعبد لله سبحانه»[٢].

وإنما قُيِّد بالدين: لأنها فيه تُختَرع، وإليه يضيفها صاحبُها، وأيضاً: فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص: لم تُسَمَّ بدعة، كإحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدم.

ولَمَا كانت الطرائقُ في الدين تنقسم: فمنها ما له أصل في الشريعة، ومنها ما ليس له أصل فيها: خص منها ما هو المقصود بالحد، وهو القسمُ المخترع، أي: طريقة ابتُدعت على غير مثال تقدمها من الشارع؛ إذ البدعةُ إنما خاصتُها أنها خارجة عما رسَمه الشارع.

---

(١) تحذير المسلمين عن الابتداع في الدين، لابن حجر آل بوطامي (ص/ 10).

(٢) الاعتصام، للشاطبي (ص/ 28).

وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادئ الرأي أنه مخترع مما هو متعلق بالدين، كعلم النحو، والتصريف، ومفردات اللغة، وأصول الفقه، وسائر العلوم الخادمة للشريعة؛ فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول: فأصولُها موجودة في الشرع...

وقولُه في الحد «تضاهي الشرعية» يعني: أنها تشابه الطريقةَ الشرعيةَ من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادةٌ لها من أوجه متعددة، منها:

منها: وضع الحدود، كالناذر للصيام قائماً لا يقعد، ضاحياً لا يستظل، والاختصاص في الانقطاع للعبادة، والاقتصار من المأكل والملبس على صنفٍ دون صنف من غير علة.

ومنها: التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوتٍ واحد، واتخاذ بعض الأيام الفاضلةِ أعياداً دينية، وما أشبه ذلك.

ومنها: التزام العبادات المعينة في أوقاتٍ معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته.

وثَمَّ أوجه تضاهي بها البدعةُ الأمورَ المشروعة، فلو كانت لا تضاهي الأمورَ المشروعةَ لم تكن بدعة؛ لأنها تصير من باب الأفعال العادية.

وقوله: «يقصد بالسلوك عليها المبالغةَ في التعبد لله تعالى» هو تمام معنى البدعة؛ إذ هو المقصودُ بتشريعها...»[1].

وهذا التعريف مع هذا الشرح من الشاطبي رحمه الله يوضح حقيقة البدعة، وأنها: ما أُحدِث في الدين باسم الانضباط في التعبد، أو المبالغة فيه، وأنها تكون قد اختُرِعَت

---

(١) انظر: الاعتصام، للشاطبي (ص/ 28-30).

بقصد التقرب إلى الله تعالى، وأنها لا يكون لها أصلٌ من الكتاب والسنة أو عمل الصحابةﷺ ومن سلك سبيلَهم من السلف الصالح.

المبحث الثاني: بيان أنواع البدعة:

تنقسم البدعةُ باعتبارات مختلفة إلى أقسام عديدة، منها :

الأول: تقسيم البدعة بحسب ما يترتب عليها من أحكام.

الثاني: تقسيم البدعة من حيث كونها إضافية أو حقيقية.

الثالث: تقسيم البدعة باعتبار كونها اعتقادية أو عملية.

وفيما يلي تفصيل هذه التقسيمات.

التقسيم الأول: تقسيم البدعة بحسب ما يترتب عليها من أحكام

تنقسم البدعة بهذا الاعتبار إلى نوعَين:

النوع الأول: البدعة المكفِّرة:

وهي التي تُخرج الإنسانَ من الإسلام، وهي الفسادُ في العقيدة في أصل من أصول الدين.

والبدعةُ المكَفَّر بها لا بد أن يكون ذلك التكفير متفقاً عليه من قواعد جميع الأئمة، كما في غلاة بعض أهل البدع الذين يدَّعون حلولَ الإلهية في عليٍّ رضي الله عنه أو غيره، أو الإيمان برجوعه إلى الدنيا قبل يوم القيامة، أو غير ذلك[1].

النوع الثاني: البدعة المفسِّقة:

وهي التي لا تُخرج عن الإسلام، بل يفسق بها، وهي تُطلق على فساد في العمل مع سلامة العقيدة، كما أنها تُطلق على بدع الاعتقادات التي لا يصل أصحابُها إلى درجة الغلو، كبدع الخوارج ومَن معهم، الذين لا يغلون ذلك الغلو، وغير هؤلاء من

---

(١) انظر : هدي الساري، للحافظ ابن حجر (ص/ 404).

الطوائف المخالفين لأصول السنة خلافاً ظاهراً، لكنه مستند إلى تأويلٍ ظاهرُه سائغ.[1]

والناس يتفاوتون في تحديد ما يدخل تحت هذين النوعَين نظراً لتفاوتهم في النظر إلى البدع وحجمها، وذلك تبعاً لاختلافهم في المنهج، ولكن أهل السنة والجماعة ليس بينهم كبير خلاف في ذلك، أما أهل البدع فقد ينقلبُ الأمرُ عندهم، فقد يعدّ أحدُهم السنة بدعةً، والبدعةَ سنة، ويكون حكمُه في ذلك تبعاً لهواه، ولا عبرة بأمثالهم.

التقسيم الثاني : تقسيم البدعة من حيث كونها إضافية أو حقيقية.

البدعة بهذا الاعتبار على نوعين:

النوع الأول: البدعة الحقيقية:

وهي التي ليس لها أصلٌ من كتاب الله العزيز، ولا سنة رسول الله ﷺ ، ولا من إجماع علماء المسلمين.

النوع الثاني: البدعة الإضافية:

وهي التي تكون ذات وجهَين: وجه من حيث مشروعيتها في الجملة، والثاني: من حيث الزمن والكيفية، فإذا نظرتَ إلى الوجه الأول: تقول إنها مندوبة، وإذا نظرتَ إلى الوجه الثاني: ترى أنها بدعة.

وهناك أمثلة كثيرة لتوضيح النوعين أقتصر منها على مثالين :

المثال الأول : الصلاة على الرسول ﷺ قبل الأذان : بدعة حقيقية، إذ ليس لها أصلٌ أبداً من القرآن ولا من النبي ﷺ ولا من أصحابه – رضوان الله عليهم–.

---

(١) انظر : هدي الساري، للحافظ ابن حجر (ص/ 404).

أما بعد الأذان : فيُسَنُّ للمؤذن وللمستمع أن يصلي على النبي ﷺ ثم يقول: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته» لِما رواه ابنُ عمرو رضي الله عنه أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذنَ فقولوا مثلَ ما يقول، ثم صلوا عليّ؛ فإنه مَن صلى عليَّ صلاةً واحدةً صلى الله عليها بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمَن سأل الله لي الوسيلةَ حَلّت له الشفاعة»(١).

أما رفعُ صوت المؤذن بالصلاة والسلام على الرسول من الأذان: فهذا بدعة، كما يفعلُه بعضُ المؤذنين في بعض الأمصار، وقد مضت القرونُ من عهد النبيِّ ﷺ إلى عصر صلاح الدين ولم تظهر هذه البدعةُ إلا في عصره على يد بعض الجاهلين، وقد أنكرها بعضُ العلماء المحققين.

فبالنظرِ إلى مشروعية الصلاة على الرسول ﷺ بعد الأذان: تكون مستحبة، وبالنظرِ إلى الجهرِ بها بعد الأذان فوق المنابر: بدعة، فأصبحت ذات وجهَين.

المثال الثاني: التسبيح دبر الصلوات والدعاء من المسنونات، ولكن قراءة الإمام والدعاء لهم، ورفع الصوت به، وتأمين المأمومين على ذلك: من البدع من حيث الكيفية، لا من حيث المشروعية.

وكلا النوعَين من البدع لا يجوز أن يتعبد بهما المسلم، وكما أنه لا يجوز إحداثُ بدعةٍ حقيقية: لا يجوز إحداث كيفية، أو في زمن لم يَرِد بها الشرع... وقد

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ 384)، وأبو داود (1/ 199 ح/ 523).

أنكر العلماءُ البدعة الإضافية، كما أنكروا البدعةَ الحقيقية، لا فرق في ذلك[1].

التقسيم الثالث : تقسيم البدعة باعتبار كونها اعتقادية أو عملية:

تنقسم البدعةُ بحسب حالها إلى قسمين :

القسم الأول: البدعة الاعتقادية:

وهي اعتقاد شيء على خلاف ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، سواء أكان مع الاعتقاد عمل أم لا.

وأكبرها – بل أكبر الكبائر على الإطلاق-: الشرك بالله العظيم، ومن أمثلتها: بِدَع الخوارج، والمعتزلة، والجهمية، والقدرية، والمرجئة، وما تفرع عنها، وهي متفاوتة بحسب بُعْدها عن أصول الدين وقربها.

القسم الثاني: البدعة العملية:

وهي أن يُشرع في الدين عبادةً لم يشرعها الله تعالى ورسولُه ﷺ ، وكل عبادة لم يأمر بها الشارع أمرَ إيجابٍ أو استحباب: فإنها من البدع العملية.

وهذا القسم يتنوع إلى أنواع عديدة بحسب نوع البدعة وموقعها من أصول الشرع قرباً وبعداً.

---

(١) انظر : تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين، للشيخ ابن حجر آل بوطامي (ص/ ٨٦-٩٠).

المبحث الثالث : التحذير من البدع :

وردت أدلةٌ كثيرةٌ تدل على تحريم البدع والتغليظ على مبتدعِها وفاعلِها، ومنها :

١ - قولُه تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى :21].

٢ - ما رواه جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما قال : كان النبيُّ ﷺ يقولُ في خطبتِه : «أما بعد، فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد، وشرَّ الأمور محدَثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالة»[1].

٣ - ما رواه العرباضُ بنُ سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإن كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة»[2].

٤ - ما روته أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[3].

٥ - ما رواه أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه في قصة الثلاثة الذين أرادوا أن يزيدوا على عبادة النبي ﷺ فقال أحدُهم : أما أنا فأصلي الليلَ أبداً، وقال الآخر : أنا أصوم الدهرَ ولا أفطر، وقال الآخر : أنا أعتزل النساءَ فلا أتزوجُ أبداً، فقال رسولُ الله ﷺ : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم

---

(١) رواه مسلم (ح/ 867).

(٢) رواه أحمد (4/ 126، 127)، والترمذي (ح/ 2676) وقال : « حسن صحيح »، وابن ماجه (ح/ 42–44)، من طرق يقوي بعضُها بعضاً، وهو حسن بمجموع طرقه.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 2697)، ومسلم (ح/ 1718) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساءَ، فمَن رغبَ عن سنتي فليس مني»[١].

فصيغُ العموم الواردة في النصوص السابقة تدل على تحريم جميع البدع التي يُحدِثُها الناسُ ويتعبدون لله تعالى بها وليس لها أصلٌ في الشرع.

كما أن هذا العموم يؤكد أنه ليس شيءٌ من البدع حسناً، فهي صريحةٌ في أن جميع البدع محرمة وممنوعٌ من فعلِها.

فلا يجوز لمسلمٍ أن يُعارض قولَ رسول الله ﷺ بقول غيره من البشر كائناً مَن كان، فإن عارضَ قولَه ﷺ بقول غيره: كان ذلك دليلاً على ضعف التأسِّي بالنبي ﷺ، ودليلاً على نقص محبتِه له ﷺ؛ لتقديمه قولَ غيره وهوى نفسِه على سنةِ خير البشر ﷺ؛ إذ كيف يقول النبيُّ ﷺ: «كل بدعةٍ ضلالة»، وذاك يقول: بل ليس كل بدعةٍ ضلالة، وأن بدعةَ كذا حسنة، وهذا بلا شك مضادة للشرع الذي جاء به النبيُّ ﷺ[٢].

وقد ثبت عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال: «مَن ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنةً: فقد زعمَ أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 3]، فما لم يكن يومئذٍ ديناً: فلا يكون اليوم ديناً»[٣].

وقد أجمع السلفُ من الصحابة والتابعين ومَن يليهم على ذم البدع وتقبيحها، فالبدعُ محرمةٌ ومذمومةٌ كلها، وخطرُها كبير، والله المستعان.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 5063)، ومسلم (ح/ 1401).

(٢) انظر: الاعتصام، للشاطبي المالكي (1/ 142-144).

(٣) رواه عن الإمام مالك تلميذه ابن الماجشون، كما في (الاعتصام) (1/ 49)، قال الشاطبي في الموضوع السابق: «فالمبتدع إنما محصولُ قوله بلسان حاله أو مقالِه: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقداً لكمالها وبتمامها من كل وجه: لم يبتدع ولا استدركَ عليها

الخاتمة : وفيها :

1 – بعض أصول أهل السنة والجماعة.

2 – ذكر وسطية أهل السنة بين الفرق.

3 – ثمرات الإيمان بأركان الإيمان.

أولاً : بعض أصول أهل السنة والجماعة :

1– موقفُهم من الصحابة ﷺ :

من أصول أهل السنة والجماعة : حبُّ الصحابة ﷺ والترضي عنهم، فنحن «نحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ ، ولا نُفْرِطُ في حبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرّأ من أحدٍ منهم، ونُبغِضُ مَن يُبغِضُهم، وبغير الخير يذكرُهم، ولا نذكرُهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمان وإحسان، وبغضُهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيان »(١).

والصحابيُّ هو الذي لقي المصطفىﷺ يقظةً لا مناماً، وآمنَ به، ومات على الإسلام.

وهذا الأصلُ ينتظمُ أموراً منها :

أولاً : إثبات جميع ما وردَ في فضلهم من آيات الكتاب الكريم وأحاديثِ الرسولِ الكريم ﷺ ، سواء كان هذا الفضل على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، فهم يُثبتون ذلك كلَّه، ويؤمنون به، ويسلمون به لأولئك الأطهار الذين اختارَهم الله تعالى لصحبةِ نبيهﷺ وجعلَهم وزراء له، فكانوا حَمَلَةَ رسالته من بعده.

فمن الثناء الواردِ عليهم في القرآن الكريم :

قال تعالى بعد أن ذكر الفيءَ والمستحقين له، ومبيِّناً الحكمةَ لجعلِه تعالى أموالَ

---

(١) من كلام الإمام أبي جعفر الطحاوي في عقيدته2(/704) – مع شرحها لابن أبي العز الحنفي –.

الفيءِ لِمَن قدّرها له: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: 8].

ففي قولِه تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: إخلاص النية، وفي قولِه تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: تحقيق العمل، وقولُه تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ أي: لم يفعلوا ذلك رياءً ولا سمعةً، ولكن عن صدق نية.

هذا في المهاجرين، ثم قال تعالى عن الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: 29].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 117]، والآياتُ في مدحهم والثناءِ عليهم كثيرةٌ جداً.

ومن الثناء الواردِ عليهم في السنة النبوية المطهرة:

1- ما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يأتي على

الناس زمانٌ يغزو فئامٌ[1] من الناس فيُقال لهم : فيكم مَن صَحِبَ رسولَ الله؟ فيقولون: نعم؛ فيُفتَحُ لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس فيُقال لهم: هل فيكم مَن رأى مَن صحِبَ رسولَ الله ؟ فيقولون : نعم؛ فيُفتَحُ لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس فيُقال لهم : هل فيكم مَن رأى مَن صحِبَ مَن صَحِبَ رسولَ الله؟ فيقولون : نعم؛ فيُفتَحُ لهم»[2].

2- ما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ : أي الناس خير ؟ قال : « قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيءُ قومٌ تبدرُ شهادةُ أحدهم يمينَه، وتبدر يمينُه شهادتَه »[3].

3- ما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبدِ الرحمن بنِ عوف شيءٌ، فسَبَّه خالدٌ، فقال رسولُ الله ﷺ : «لا تسُبُّوا أحداً من أصحابي؛ فإن أحدَكم لو أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهباً : ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه»[4].

فإذا كان سيفُ الله تعالى خالدُ بنُ الوليد ﷺ وغيرُه ممن أسلمَ بعد الحديبيةِ لا يساوي العملُ الكثيرُ منهم القليلَ من عبد الرحمن بن عوف ﷺ وغيرِه ممن تقدم إسلامُه، مع أن الكلَّ تشرّفَ بصحبتِه ﷺ : فكيف بمن لم يحصل له شرفُ الصحبةِ بالنسبةِ لأولئك الأخيار؟! إن البونَ لشاسع، فما أبعد الثرى من الثريا، ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ كثيرةٌ جداً، وهي مذكورةٌ في كتب

---

(١) الفِئامُ : الجماعةُ الكثيرة.

(٢) أخرجه البخاري (ح/2897، 3594، 3649)، ومسلم (ح/2532).

(٣) أخرجه البخاري (ح/2652)، ومسلم (ح/2533).

(٤) أخرجه البخاري (ح/3673)، ومسلم (ح/6383)، واللفظُ له.

الفضائل، وعلى رأسها الصحيحان، فكل واحدٍ من الشيخَين أفردَ في صحيحه كتاباً عن فضائل الصحابة، ابتدأه بذكر فضائل الخلفاء الأربعة ﷺ .

فيجبُ تولِّي أصحاب رسول الله ﷺ ومحبتُهم، ومحبتُهم مطلَقةٌ – رضوان الله تعالى عليهم – لِما خصّهم الله تعالى به من الصحبة لرسول الله ﷺ ، والسبق إلى الإسلام، والجهاد مع رسول الله ﷺ ، ولما فضّلهم الله تعالى به من العلم والعمل، فهم خيرُ القرون بعد الأنبياء، وأفضلُ هذه الأمةِ بعد نبيِّها ﷺ .

ثانياً : الصحابةُ ﷺ وإن جمعَهم شرفُ الصحبةِ لرسول الله ﷺ ، وشملَهم هذا الفضل الكريم، إلا أنهم متفاوتون في الفضل والدرجة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد : 10].

فأفضلُهم على الإطلاق أبو بكر الصديق، ثم يليه في هذه المرتبة العليّةِ عمرُ الفاروق، ثم ذو النورين عثمان، ثم أبو السبطين عليٌ – رضي الله تعالى عنهم جميعاً –، ثم الستة بقية العشرة، وهم : طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، والزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي الزهري، وسعد

---

(١) هذا الذي استقرَّ عليه رأيُ أهل السنة والجماعة، من تقديم عثمان رضي الله عنه على علي رضي الله عنه كما دلت الأحاديثُ على ذلك، وكما أجمع الصحابةُ على تقديم عثمان رضي الله عنه في البيعة، ومع هذا فليست مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما من الأصول التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهور أهل السنة، لكن الذي يُضَلَّلُ فيها : مسألة الخلافة، فيجبُ أن نقول : الخليفةُ بعد نبيه ﷺ في أمته : أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنه ، ومَن قال : إن الخلافةَ لعلي رضي الله عنه دون هؤلاء الثلاثة : فهو ضال، ومَن قال : إنها لعلي رضي الله عنه بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : فهو ضال؛ لأنه مخالفٌ لإجماع الصحابة رضي الله عنهم .

بن أبي وقاص القرشي الزهري، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، وسعيد بن زيد بن عمرو القرشي العدوي رضي الله عنهم وأرضاهم -.

ثم أهل بدر، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

كما أن المهاجرين مقدَّمون على الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين -.

ثالثاً : ومن أصول أهل السنة والجماعة : محبة آل بيت رسول الله ﷺ وتولِّيهم وحفظُ وصية النبي ﷺ فيهم؛ حيث قال ﷺ يوم غدير خُم : « أذَكِّرُكم الله في أهل بيتي » ثلاثاً[1]، يعني : اذكروا الله؛ اذكروا خوفَه وانتقامَه إن أضَعتُم حقَّ آل البيت، واذكروا رحمتَه وثوابَه إن قمتم بحقهم.

فأهلُ السنة يحبون آلَ البيت لأمرين : للإيمان، وللقرابةِ من رسول الله ﷺ، ولا يكرهونهم أبداً.

كما أن أهلَ السنة يتولَّون أزواجَ رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهنَّ أزواجُه ﷺ في الآخرة، خصوصاً : خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولادِه ﷺ وأول مَن آمَن به ﷺ وعاضدَه على أمره، وكان لها منه ﷺ المنزلة العالية، وكذلك الصديقة بنت الصديق، التي قال فيها النبيُّ ﷺ : « فضلُ عائشة على النساء : كفضلِ الثريد على سائر الطعام »[2].

رابعاً : الصحابةُ ﷺ كلهم عدول، صغارُهم وكبارُهم، ذكورُهم وإناثُهم، وقد ثبتت عدالتُهم بنص الكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

---

(١) رواه مسلم (ح/2408) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/3769)، ومسلم (ح/2431) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

خامساً : ومن أصول أهل السنة والجماعة : الإمساك عما شجرَ بين الصحابة ﷺ وعدم الخوض فيه، والتتبع لكل تفصيلاتِه، وأنّ ما نُقِلَ فيما شجَرَ بينهم واختلفوا فيه : فمنه ما هو باطلٌ وكذبٌ قد زيدَ فيه ونقص، فلا يُلتَفَتُ إليه، وما كان صحيحاً يجب حملُه على أحسن المحامل؛ لأن الثناءَ عليهم من الله تعالى سابق، ولأن ما حصلَ بينهم من الاختلاف كان عن اجتهادٍ يتحرّون فيه الحقَّ والصواب، فما كان من صواب : فلهم فيه أجران، وما فيه من خطأ : فهم فيه معذورون، فلا يجوز لنا الخوضُ في الحروب التي حصلت إلا على وجه الاعتذار لهم.

ولهذا لما ذكر الله تعالى المهاجرين والأنصارَ أعقبَه بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : 10].

فليأخذ المسلم هذه الآيةَ نصبَ عينيه، ولا يَحِدْ عنها ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ .

سادساً : سبُّ الصحابة ﷺ والتعرض لهم بعيبهم وتنقّصِهم والطعن في عدالتهم حرامٌ بنصِّ الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة.

والحقيقة : أنّ سبَّ الصحابةِ ﷺ ليس جرحاً في الصحابةِ ﷺ فقط، بل هو قدحٌ في النبي ﷺ ، وفي شريعة الله تعالى، بل وفي ذات الله ﷻ :

- أما كونُه قدحاً في رسول الله ﷺ : فحيث كان أصحابُه وأمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق، وفيه قدحٌ في رسول الله ﷺ من وجهٍ آخر، وهو تكذيبُه فيما أخبرَ به ﷺ من فضائلهم ومناقبِهم ﷺ .

- وأما كونُه قدحاً في شريعة الله تعالى : فلأن الواسطةَ بيننا وبين رسول ﷺ في نقل الشريعةِ هم الصحابة ﷺ ، فإذا سقطت عدالتُهم : لم يبقَ ثقة فيما نقلوه من الشريعة.
- وأما كونُه قدحاً في الله سبحانه وتعالى : فحيث بعثَ نبـيَّه ﷺ في شرار الخلق، واختارَهم لصحبتِه وحَمْلِ شريعتِه ونقلِها لأمتِه !!

فليتق الله تعالى مَن يُقدِمُ على هذه المعصيةِ الشنعاء، ولينظر ماذا يترتبُ من الطوام الكبرى على سبِّ الصحابةِ ﷺ .

سابعاً : عدم الإفراط والتفريط في حب الصحابة، وأهلُ السنة والجماعة يتبرأون هنا من طريقة أهل البدع الذين يُبغضون الصحابة ﷺ ويسبونهم، كما أنهم يتبرّأون من طريقة أهل البدع الذين يؤذون أهلَ البيت بقول أو عمل، وسيأتي شرحُه عند الحديث عن وسطيّة أهل السنة والجماعة في باب الصحابة ﷺ .

- ومن أصول أهل السنة والجماعة أيضاً :

٢ -وجوبُ السمع والطاعة لولاة الأمور بالمعروف، ما لم يأمروا بمعصية، ولا يجوز الخروجُ عليهم وإن جاروا، إلا أن يُرى منهم كفرٌ بواحٌ عليه من الله تعالى برهان.

٣ -وجوبُ النصيحةِ لله تعالى، ولرسوله ﷺ ، ثم لأئمة المسلمين، وهم ولاة الأمور والعلماء، وعامَّتِهم، كما وردَ ذلك في الحديث الشريف.

٤ -الجهاد مع الإمام، بَرّاً كان أو فاجراً، والجهادُ من شعائر الدين، وذروةُ سنام الإسلام، وأنه قائمٌ إلى يوم القيامة، كما وردت بكل ذلك الأحاديث.

٥ -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أصلٌ من أصول الدين، ومن أعظم شعائر الإسلام، ويتميزُ أهل السنة في هذا الباب – كما هو حالُهم في غيره من

الأبواب – بالالتزام بالشرع في تحديد المعروف، وفي تحديد المنكر، سواء كان في أمور الاعتقاد، أو غيرها، بخلاف غيرِهم من أهل البدع، الذين لهم نظراتُهم الخاصةُ بهم في تحديد المعروف والمنكر، فقد يكون المعروفُ عندهم منكَراً في الحقيقةِ عند الشارع، وعكس ذلك في المنكر.

٦ -وجوبُ الحب في الله تعالى، والبغض في الله تعالى، ومن ذلك : الولاءُ للمؤمنين الصالحين، والبَراءُ من المشركين والكافرين والمنافقين، وكلُّ مسلمٍ له من الولايةِ بقدرِ ما لديه من الإيمانِ والاتباعِ للرسول ﷺ ، ومن البراءةِ بقدرِ ما فيه من الفسق والمعصية.

ثانياً : وسطية أهل السنة بين الفرق :

عقيدة أهل السنة والجماعة – والتي هي عقيدة الإسلام الصحيحة – وسطٌ بين عقائد الفرق المنحرفة المنتسبة إلى دين الإسلام، فهي في كل باب من أبواب العقيدة وسطٌ بين فريقين آراؤهما متضادة، أحدُهما غلا في هذا الباب والأخرُ قصّرَ فيه، أحدُهما أفرط والثاني فرّط، فهي حق بين باطلين، فأهلُ السنة وسطٌ – أي: عدولٌ خيار – بين طرفين منحرفَين في جميع أمورهم.

وقد تقدم بيانُ ذلك عند ذكر أصول العقائد، ولكنني ألخص هنا بعض ما تقدم لأهمية هذا الأمر، وسأذكر خمسةَ أصول عقدية توضح وسطيّةَ أهل السنة بين الفرق فيها، وهي :

الأصل الأول : باب العبادات :

توسّط أهلُ السنة في هذا الباب بين فرق الباطنية الذين تركوا عبادة الله تعالى بالكلية وبين بعض فرق أهل البدع الذين يعبدون الله تعالى بما لم يشرعه من

الأذكار والتوسلات، وإقامة الأعياد والاحتفالات البدعية، والبناء على القبور والصلاة عندها والطواف بها والذبح عندها.

أما أهلُ السنة والجماعة : فيعبدون الله تعالى بما جاء في كتاب الله تعالى وسنةِ رسوله ﷺ ، فلم يتركوا ما أوجبَ الله تعالى عليهم من العبادات، ولم يبتدعوا عباداتٍ من تلقاء أنفسهم، عملاً بقول النبي ﷺ : «مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه: فهو رد»[١]، وفي روايةٍ لمسلم : « مَن عملَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رد»[٢].

وبقولِ النبي ﷺ في خطبتِه : « أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدَثاتُها، وكل بدعةٍ ضلالة »[٣].

الأصل الثاني : باب أسماء الله تعالى وصفاتِه :

توسّط أهلُ السنة والجماعة في هذا الباب بين المعطلة وبين الممثلة.

- فالمعطلة : منهم مَن ينكر الأسماء والصفات، كالجهمية، ومنهم مَن يُثبتُ الأسماء وينكر الصفات، كالمعتزلة، ومنهم مَن يُثبت بعض الصفات ويُنكر أكثرَها، كبقية الفرق الكلامية؛ وعمدةُ الجميع الاعتماد على عقولهم القاصرة التي حكّموها على النصوص، واعتبروا ذلك تنزيهاً، وليس هو من التنزيه في شيء.
- والممثلة : يضربون لله تعالى الأمثال، ويدّعون أن صفاتِ الله تعالى تماثل صفاتِ المخلوقين، كأن يقول : يدُ الله تعالى كيدي، وسمعُ الله تعالى كسمعي، تعالى الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (ح/ 2697)، ومسلم (ح/ 1718).

(٢) صحيح مسلم (ح/ 1718).

(٣) رواه مسلم (ح/ 867).

فهدى الله ﷻ أهلَ السنة والجماعة للقول الوسط في هذا الباب، والذي دل عليه كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله ﷺ ، فآمنوا بجميع أسماء الله تعالى وصفاتِه الثابتةِ في النصوص الشرعية، فيصفون الله تعالى بما وصفَ به نفسَه، وبما وصفه به أعرفُ الخلق به رسولُه محمدُ بنُ عبد الله ﷺ ، من غير تعطيل ولا تأويل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، ويؤمنون بأنها صفاتٌ حقيقيةٌ تليق بجلال الله تعالى، ولا تماثلُ صفاتِ المخلوقين، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

الأصل الثالث : باب القضاء والقدر :

توسّطَ أهلُ السنة والجماعة في هذا الباب بين القدرية والجبرية.

- فالقدريةُ نفوا القدر، فقالوا : إن أفعالَ العباد وطاعاتِهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله تعالى وقدَره، فالله تعالى على زعمهم لم يخلق أفعالَ العباد ولا شاءَها منهم، بل العبادُ مستقلون بأفعالهم، والعبد على زعمهم هو الخالقُ لفعله، وهو المريدُ له إرادةً مستقلة، فأثبتوا خالقاً مع الله سبحانه، وهذا إشراكٌ في الربوبية، ففيهم شَبَهٌ من المجوس الذين قالوا بأن للكون خالقين.

- أما الجبرية : فقد غلوا في إثبات القدَر، فقالوا : إن العبد مجبورٌ على فعله، ولم يفرقوا بين أفعاله الاضطرارية وأفعالِه الاختيارية، فهو عندهم في جميع الحالات كالريشة في الهواء، لا فعل له، ولا قدرة، ولا مشيئة.

فهدى الله أهلَ السنة والجماعة للقول الحق والوسط في هذا الباب، فآمنوا بمراتب القضاء والقدر الأربعة الثابتة في الكتاب والسنة، فأثبتوا أن العبادَ فاعلون حقيقة، وأن أفعالَهم تُنسَبُ إليهم حقيقة، وأن فعلَ العبد واقعٌ بتقدير الله تعالى

ومشيئتِه وخلقه، فالله تعالى خالقُ العباد وخالقُ أفعالهم، وقد سبق للمسألة مزيد تفصيلٍ في بابها.

الأصل الرابع : باب الوعد والوعيد :

توسطَ أهلُ السنة والجماعة في هذا الباب بين الوعيدية وبين المرجئة.

- فالوعيديةُ يأخذون بنصوص الوعيد ويُهملون نصوصَ الوعد، ومنهم الخوارج الذين يرون أن فاعلَ الكبيرة من المسلمين – كالزاني وشارب الخمر – كافر مخلد في النار.
- والمرجئةُ على العكس من الوعيدية، يأخذون بنصوص الوعد، ويُهملون نصوصَ الوعيد، فيقولون : إن الإيمانَ هو التصديق القلبي، وأن الأعمالَ ليست من الإيمان، فلا يضر مع الإيمان معصية.

أما أهلُ السنة والجماعة : فهم وسط بين الفريقَين، فصاحبُ الكبيرةِ عندهم مؤمنٌ ناقص الإيمان، مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، وأنه إذا مات وهو مصرٌّ عليها ولم يتب منها: فأمرُه إلى الله ﷻ وهو تحت مشيئتِه، إن شاء غفر له ابتداءً وأدخلَه الجنة، وإن شاء عذبه على قدر ذنوبه، ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة؛ إذ لا يخلد في النار إلا مَن كفر وأشرك.

والإيمانُ عند أهل السنة والجماعة قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

الأصل الخامس : باب أصحاب النبي ﷺ :

توسّطَ أهلُ السنة والجماعة في هذا الباب بين فريقَين متقابلين :

فريقٌ غلوا في حق آل البيت – كعلي بن أبي طالب وأولادِه ﷺ – فادّعوا أن علياً ﷺ معصوم، وأنه يعلم الغيب، وأنه أفضل من أبي بكر وعمر ﷺ، ومن غلاتهم مَن يدّعي ألوهيّتَه.

وفي المقابل جفوا في حق أكثر الصحابة ﷺ، فسبُّوهم وقالوا: إنهم كفار، وأنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ، ولا يستثنون من الصحابة إلا آلَ البيت ونفراً قليلاً قالوا إنهم من أولياء آل البيت، كما أنهم يشتمون أمهاتِ المؤمنين، وأفاضلَ الصحابة ﷺ.

وفريق جفوا في حق آل البيت، فقابلوا البدعةَ ببدعة، فسبّوا آلَ البيت وأبغضوهم، وهؤلاء هم النواصب، ومنهم الخوارج أيضاً، الذي كفّروا علياً ﷺ وكفّروا معاويةَ بنَ أبي سفيان ﷺ وكفّروا كلَّ مَن لم يكن على طريقتهم.

أما أهلُ السنة والجماعة : فيحبون جميعَ أصحاب النبي ﷺ، ويترضون عنهم، ويرون أنهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، وأن الله تعالى قد اختارَهم لصحبة نبيه، ويمسكون عما شجر بينهم، ويرون أن أفضلَهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي – رضي الله عنهم أجمعين – ويحبون آلَ بيت النبي ﷺ ويرون أن لهم حقين: حق الإسلام وحق القرابةِ من رسول الله ﷺ، فيوالونهم، ويترضون عنهم.

ثالثاً : ثمرات الإيمان بأركان الإيمان :

هذه العقيدة السامية المتضمنة للإيمان بأركان الإيمان العظيمة تُثمرُ لمعتقِدِها ثمراتٍ جليلةً كثيرةً، ومنها :

من ثمرات الإيمان بالله تعالى :

الإيمانُ بالله تعالى وأسمائه وصفاتِه يُثمِرُ للعبد محبةَ الله تعالى وتعظيمَه الموجِبَين للقيام بأمره، واجتنابِ نواهيه، والقيامُ بأمر الله تعالى واجتنابُ نهيِه يحصلُ بهما كمالُ

السعادة في الدنيا والآخرةِ للفردِ والمجتَمَع :﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

ومن ثمرات الإيمان بالملائكة :

١ -العلمُ بعظمةِ خالقِهم تبارك وتعالى وقوَّتِه وسلطانِه.

٢ -شكرُه تعالى على عنايتِه بعباده، حيث وَكَّلَ بهم من هؤلاء الملائكةِ مَن يقومُ بحفظِهم وكتابةِ أعمالِهم وغيرِ ذلك من مصالحهم.

٣ -محبةُ الملائكةِ على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكملِ واستغفارِهم للمؤمنين.

ومن ثمرات الإيمان بالكتب :

١ -العلمُ برحمة الله تعالى وعنايتِه بخلقِه، حيث أنزلَ لكل قومٍ كتاباً يَهديهم به.

٢ -ظهورُ حكمة الله تعالى، حيث شرعَ في هذه الكتب لكل أمةٍ ما يُناسبُها، وكان خاتَمُ هذه الكتب القرآنُ العظيمُ مناسباً لجميع الخلقِ في كل عصرٍ ومكانٍ إلى يوم القيامة.

٣ -شكرُ نعمة الله تعالى على ذلك.

ومن ثمرات الإيمان بالرسل :

١ -العلمُ برحمة الله تعالى وعنايتِه بخلقه، حيث أرسلَ إليهم أولئك الرسلَ الكرامَ عليهم السلام للهدايةِ والإرشاد.

٢ -شكرُه تعالى على هذه النعمةِ الكبرى.

٣ -محبةُ الرسل عليهم السلام وتوقيرُهم والثناءُ عليهم بما يليقُ بهم؛ لأنهم رسلُ الله تعالى وخلاصةُ عبيده، قاموا لله تعالى بعبادتِه وتبليغِ رسالتِه، والنصحِ لعباده، والصبرِ على أذاهم.

٤ -العزم على ترسُّمِ خطاهم في تبليغ الدين، واختيار أمثل السبل لذلك، مع الصبر على أذى المخلوقين، والثبات عليه.

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر :

١ -الحرصُ على طاعة الله تعالى رغبةً في ثواب ذلك اليوم، والبعدُ عن معصيتِه خوفاً من عقاب ذلك اليوم.

٢ -تسليةُ المؤمنِ عمّا يفوتُه من نعيم الدنيا ومتاعِها بما يرجوه من نعيم الآخرةِ وثوابِها.

ومن ثمرات الإيمانِ بالقضاء والقدَر :

٦ -الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله تعالى وقدره.

٧ -راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم العبد أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة : ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب عز وجل وقَدَرِه.

٨ -طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمةٌ من الله تعالى بما قضاه وقدَّره من أسباب الخير والنجاح، فيشكر الله تعالى على ذلك ويَدَعُ الإعجاب.

٩ -طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه؛ لأن ذلك بقضاء الله تعالى وقدَرِه الذي له ملك السماوات والأرض، وهو كائنٌ لا محالة، فيصبر على ذلك، ويحتسب الأجر.

نسأل الله تعالى أن يثبِّتَنا على هذه العقيدة، وأن يُحَقِّقَ لنا ثمراتِها، ويزيدنا من فضله، وأن لا يزيغ قلوبَنا بعد إذ هدانا، وأن يَهَبَ لنا من لَدُنْه رحمة، إنه هو الوهّابُ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

فهرس الموضوعات